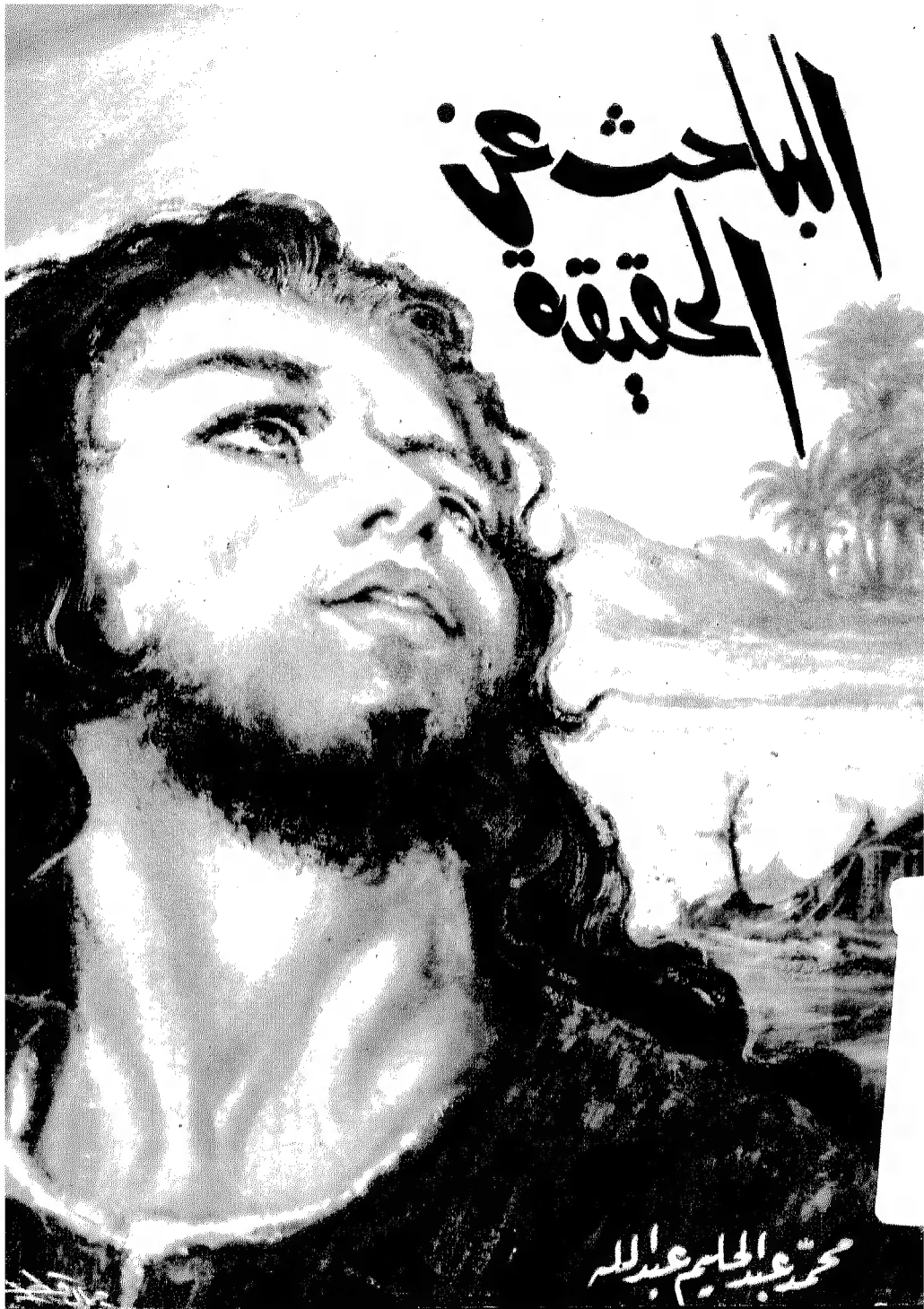


البحث عن الحقيقة



محمد عبد الحليم عبد الله

الْبُشْعُ عَنْ الْحَقِّقَةِ

البَحْثُ عَنْ الْحَقِيقَةِ

قصة

تأليف

محمد عبد الحليم عبد الله

الناشر

مكتبة مصر
٣ شارع كامل مكتبي - الجيزة

لَنْ لَمْ تَكُنْ اِصْرِي مَهْنِي فَافْغِرْ بِهَا اِصْرِي سَيَّأَنِي يَا رَبِّ
المؤلف

رائحة بخور نادرة تملأ أنفه ، وهمهمات من أدعية
مهموسة تملأ أذنيه ، لكن قلبه الليلة يملؤه الشك .

شاب باهر العود صحيح الجسم دائم التأمل ، له
حواجب غزيرة مقرونة توحى بالقوة ، وبين الحاجبين
تقطيعة تشكو في صمت ، شكوى النفس للنفس ، حركة
الشك التي تبحث عن اليقين في تحسس وديب ، وبين
كل فكرة وفكرة تنهد .

والمساء ينزل على قرية « جى » القرية من
« أصفهان » بأمر اطرورية « فارس » ، يحمل رائحة عيد
« النوروز » الذى فرغوا من الاحتفال به ، وأخذ دهاقين^(١)
القرى وحكامها أيامها يجهدون الناس فى جمع أثمان الهدايا
الإجبارية التى تقدم لكسرى ، فرقدت القرية فى أحضان
التل ككائن أنهكه التعب .

وعلى التل يقع « بيت النار » معبدتهم المقدس ، الذى
خرج منه هذا الشاب المجوسى لتوه وأخذ يهبط التل ، فى
أنفه رائحة بخور وفى أذنيه أدعية مهموسة ، وصورة

(١) جمع دهاقان وهو حاكم القرية أو ملك الضيعة .

لخدام المعبد وقد أخفوا أفواههم بأربطة وهم يوقدون النار
فى الهيكل المظلم ، حتى لا تلوث أنفاسهم طهارتها .

عندما استقرت أقدامه على الأرض أحس كأنه وصل إلى
شئ ، ألقى نظرة على الأشياء من حوله فرأى بين وحداتها
تفاهما كان مفقودا من قبل . وأحس كأن هذا النجم يومض
فى السماء يخاطب هذا الحجر الملقى على الأرض . ليس
هناك شئ منفصلا عن شئ . وكل المخلوقات تواكبت فى
وضع واحد كتناسق الأنغام فى اللحن .

وقف متأملا كأنه نسى المشى ، وألقى نظرة على بيت النار فوق
التل فأحس غربته .. هذا هو الشئ الوحيد المنفصل عن كل
ما حوله . وكأنما اتفقت الكائنات جميعا على خصامه . نزل عليه
الليل أشد ظلمة وكأنما الفجر على بقية الأشياء ، وأحس الشاب أن
قلبه ينبوع لكل هذا . فمنه صدرت إشارة حار فى معناها غيرت
نظرته للكون ، فهو منذ بلغ رشده وهو يبحث عن الله ، وقاده إليه
هرايدة^(١) الجحوس وقالوا له : « إنه هنا » .

وعلموه وتركوه يعلم الناس مثلما علموه ، وقدم النبات
المقدس للنار العظيمة ، الكائن الأبدى المطهر فى نظرهم .

(١) الهرايدة : رجال الدين عند الجحوس .

- ٩ -

وها هو ذا فجأة ينظر إلى الحجر والنجم ويلحظ بينهما تفاهما وتناسقا ، ويشعر أن سر التفاهم نبع من قلبه ، ويرى الليل جاثما جدا على معبد النار .

عند ذلك تأوه الشاب آهة تحمل غاية أسرار لذة (الوصول) وكل آلام جهد (البحث) فيها عبادة مثل الصلاة وخشوع مثل الركوع وتحية لوجه عظيم عرفه .. ثم أحد السير نحو داره ..

هذا الشاب ابن دهقان القرية . كان أبوه مشغولا منذ أيام فى جمع الضرائب وثنم الهدية التى قدمت لكسرى . أبوه رجل قصير غليظ شديد الوطأة على الناس كثير الحب لأبنائه .

ولم يكن فى حياته شىء أغلى ولا أعز من هذا الابن . لم يكن يناديه باسمه بل كان يناديه دائما يا « أنا » ، والإنسان لا ينادى نفسه علنا . لذلك كان يحبه قدر ما يحب الدنيا مضافة إليها نفسه . وعندما يهل عليه يقبل حاجبيه المقرونين ، يقف على أطراف أصابعه لأن ابنه كان أطول منه . وفى أغوار عينيه السوداوين كان يرى كل مقدس ، وشيئا مثل هيكل النار ذى الظلام والوهج فى بيت الجحوس على قمة التل .

ودخل الشاب داره ولقيته أمه التى خاطبته بتحية أيه :

- هل جئت يا « أنا » ؟

- ١٠ -

ولم يرد الشاب بل سأل :

- وأين أبى ؟

ردت فى إهمال امرأة تنادى الجوارى فيحملن إليها أكثر مما تطلب :

- لعله يجول فى المزرعة .

ولم ينتظر بل ولاها ظهره وخرج ، لم يكن يدرى لماذا يبحث عن أبيه ، ولم يكن يدور بظنه أنه يبحث اليوم عن خصم عزيز . وفى ساحة الدار رأى فرسا عربيا اشتراه أبوه فى إحدى رحلاته إلى الجزيرة فهم أن يركبه ، ولكنه أعرض وأثر أن يذهب ماشيا إلى أبيه .

وعند أطراف المزرعة سمع على بعد سهيل حصان جامح وضجيج غضب ، وكان الصوت صوت أبيه يهدير ويتدفق ثم ينقطع من الجهد . ولم تكن هذه الأشياء قليلة ولا نادرة فقد كان من أقسى الدهاقين فى الإقليم . لكن الشاب يحس الليلة بأن شغاف قلبه شديد الشفافية غير قادر على لمسة ٥ وعندما قارب موقعه سمع صوت جلد ورجلا يصرخ وسوطا يتر فى الهواء يصاحب كل هذا سهيل الحصان .. ثم حوار الخنازير .

وتقدم الشاب من أبيه الذى كان يجلد رجلا .. ومد يده

إليه ضارعا :

- أبى .

فتوقف الرجل عما كان فيه ، ثم هتف وهو يلهث

وأطرافه ترتعد :

- ١١ -

- هل .. جئت .. يا « أنا » .. ؟

هتف الشاب بينه وبين نفسه وهو يهز رأسه وعيناه
تفيضان بالدمع : « أخطأت .. لم يعد اسمى كذلك ..
أصبحت رجلا غيرك .. ورجلا غير نفسى .. بل ربما كنت
نفس هذا الرجل الذى تجلده .. كل هؤلاء المساكين فى
جلدى .. أصبحت أحس وقع الشياطين عليهم » . وتأوه ..
تلك الآهة التى تحمل سر أسرار (الوصول) وكل آلام
(البحث) .. عبادة مثل الصلاة وخشوع مثل الركوع
وتحية لوجه عرفه ..

كان صوت أبيه المتقطع لا يزال يصل إليه فى ظلمة
الليل :

- لماذا لا ترد على يا « أنا » ؟

وهاج نوار الخنازير كأنها تحتج على جلد راعيها ،
وتقدم الشاب من الرجل المنزوى عند باب الحظيرة واحتضنه
ففاحت منه رائحة سماد وروث . ولاذ الرجل بين أحضان
كأنه لمس إنسانا لأول مرة :

وتراجع الدهقان مذعورا . أدرك عمق الخطر الذى أتاه
ابنه الشاب الذى يلبس الحرير وهو يحتضن راعى الخنازير .
ثم همس :

- ماذا فعلت يا

- ١٢ -

وقطع نداءه وصاح بصوته الأجش :

— لا .. لست « أنا » .. إنك « أنت » شخص جديد
لا أكاد أعرفك ..

ماذا فعلت ؟

همس الابن كالمأخوذ :

— ولماذا تجلده ؟

رد الأب صارخا :

— مات اليوم تحت يده ثلاثة خنازير ... فماذا لو مات
هذا الرابع ؟

— إنه لا يدخل فى العدد يا ... « وتنحنح » .. لأنه
إنسان .

وحرك الدهقان سوطه فى الهواء ، فأز فى الليل كأنه
جرحه . واحتار فيمن يضرب ، وخيل إليه أنه على وشك
أن يهوى به على وجه ابنه الشاب الذى لم يعد (أنا) ،
وأحس كأن كفيه كاتسا قابضتين على شىء عزيز
وسقط ، ثم ركب حصانه وركض ..

★ ★ ★



سمع صوت جلد ، ورجلا يصرخ وسوطا يثز في الهواء
يصاحب كل هذا صهيل الحصان ... ثم حوار الخنازير

كانت رائحة الراعى تملأ أنف الشاب بعد ما آوى إلى حجرته . وكان بينها وبين رائحة بخور العبد تطاحن ظاهر ، وتعادلت الرائحتان بعد فترة ثم تفوقت رائحة الإنسان . وخفق قلب الشاب خفقة حار لها . ففى نفس هذه الليلة رأى إشارة التوافق بين النجم الذى يتوهج فى السماء والحجر الملقى على الأرض . وها هو ذا الإنسان فى أدنى درجاته يدخل فى دائرة التوافق !

عندئذ بدت له معالم حجرته بوجه غريب ، فوسائد المخمل وأوانى الفضة وملابس الحرير والسيوف الأثرى المحلى بالجواهر المعلق على الحائط - كل هذا لم يعد يرى فيه الوجه العظيم الذى عرفه . بل لمسة الحنو للراعى وصيحة العدل فى وجه الظالم وتراجع سوط الدهقان هى التعبير الجديد الحى الذى ملأ وجدانه .

وفى الناحية الأخرى من الدار بات الأب يتقلب فى راسه « فلما أصبح الصباح والتقى الوجهان رأى الأب على وجه ابنه حيرة يقظى ، حيرة من يبحث عن شىء كان واثقا من أنه موجود ثم اختفى فجأة ، وكانت عين الشاب تبحث عن أبيه فى وجه أبيه ، وتبادلت القلوب لغة التنافر فلم يستطع الأب أن يتأديه يا « أنا » بل ألقى إليه فوراً بأمره أن

يذهب إلى الضيعة ليرى ما إذا كانت هناك خنازير قد ماتت اليوم .

وصدع الابن بالأمر ... ومشى ، ولم يكن راعى ليلة البارحة موجودا بل كان هناك رجل غيره على وجهه تعبير يعذب النفس لأنه يصف العذاب بالصمت ، الوجه العكسى لسكون النشوة وصمت اللذة . فكما أن سائس الخيل أعدته الحركة والخيلاء والنظافة ، فقد بدا راعى الخنازير كمخلوق يتطور إلى الوراء حتى أوشك أن يكون خنزيرا ، لكن وجهه يروى قصة عذاب تألم لها الشاب وأحس أن كتب الجحوس الخمسة والأدعية والنار المقدسة والطقوس التى ناعوا بها لكثرتها لم تفعل لهؤلاء شيئا ، وأنهم يخاطبون آلهة تتصارع وكأنها فى صراعها مشغولة عن سعادة الإنسان .

ورأى الشاب جراحا مثل جراح البارحة على وجه راعى اليوم وإن لم يكن مجروحا ، فمشى يضرب فى الخلاء غير عارف إلى أى وجهة يسير . والشمس غائمة ورياح متوسطة الهبوب تداعب صداريته وأطراف سراويله الواسعة وتلفح بشىء ما وجهه الساهم .

وبين حين وحين كان ينظر إلى السماء . هناك أكداش من السحاب الأشهب والرمادى بينهما وديان من الرقعة الزرقاء . شعر الشاب أن روحه تمشى فى هذه الوديان وأنها ترى فى نهاية الوادى جنة حضراء . عندها ناس مجتمعون .

ملابسهم غير ملابس الفرس وتقاليدهم غير تقاليدهم . على
وجوههم تعطش شديد ومعرفة أعظم بالوجه العظيم الذى
عرفه أمس ، أمس البارحة .. مساء .. والليل يهبط على
القرية والمعبد الذى هجرته نفسه يبدو وكأن الليل نام عليه
والفجر يلون كل الكائنات بلون فضى .

وأحس بحاجة إلى البكاء . فبكى .. من شوق مبهم
يخالطه وعد غامض باللقاء . وأحضان فى رحابة الأبدية
ودفع الحياة كلها بكل أنواع الدفء . دفع الريش
والزغب الشمسى والقلب والحب .

وأحس الدفء فعلا فى أوصاله .. ونشط هبوب الرياح
فحمل إلى أذنيه نشيدا . كاد يحار فى مصدره أول الأمر لكنه
سرح يبصره فى كل اتجاه حتى عرف مصدر النشيد . وسار
إليه . ودخل على ناس هناك . وخيل إليه أنه يرى شيئا خيرا
مما كان يراه فى معبد النار . وهناك نسى نفسه حتى انقضى
اليوم كله ، لم يحس فيه بتاتا بحاجة مادية ، لا طعام
ولا شراب . إحساسه الروحى خدر كل الحواس ، وتحولت
كل الطاقات إلى خدمة الروح ، فالعين تبصر وترى ما وراء
الأشياء ، والأذن بدأت تسمع فى الأصوات نبرة جديدة ،
وكل طرق المعرفة نبعت من القلب وعادت إليه وأصبحت
الحواس الأصلية خدما عاديين فلم يشعر بمجموع ولا ظلما كأن

- ١٧ -

الجسم الطينى الأصل فى منتصف الطريق إلى الشفافية والاستغناء . مثلما يتصل بأصل الوجود ومصدره ومدبره ومسير الأفلاك فيه .

ودخل الليل مرة أخرى وانصرف الشاب عائدا إلى داره ، قطع نفس الطريق ، وقلقت الأم وأشعلت فى الدار كلها نار القلق ، وبكت الأخت (موران) الحسنة لأن شقيقها لم يعد ، وهى تعلم أن خلافا قد نشب بينه وبين أبيه ليلة أمس وأن الأب حرك السوط فى الهواء ليلهب به وجه « أنا » لكن كفه خذلته .

وبدأ الأب يقلق ، وبعث فى طلب الابن ناسا من الأتباع ، لكنهم فوجئوا والليل متقدم بدخول الشاب وعلى وجهه آيات من الجهد . دقت الأم لها صدرها .

وجلس الرجل الغليظ وحوله زوجته وبنته ينظر إلى الشاب السمهرى العود نظرة جبارة ، فيها من الاتهام أضعاف أضعاف كثيرة ، فهو فى نظر أبيه الليلة غير ذلك الذى ولده .

- أين كنت يا .. أنت ؟ -

أطرق الشاب مليا ثم رفع رأسه ، ورأى الأب حاجبيه المقرونين اللذين طالما وقعت بينهما قبلاته فدق قلبه بالحب العاتب . ثم بدأ الشاب يتكلم :

- ١٨ -

- مررت على رعاة الخنازير كما أمرت .
- وماذا وجدت هناك ؟
- وجدت شيئا لم تعرفه يا سيدى .
لم يسمع كلمة أيه ولكنه تناسى ، وعباد يسأل :
- ثم ماذا ؟
- وجدت الله فى كل مكان سرت فيه .
جلجلت ضحكة الأب الفظ حتى جفلت (بوران) من
صخبها .

ثم سأل الأب :
- ووجدته عند رعاة الخنازير ؟
- نعم ، إنه رب المساكين .. وجدته على صورة
جديدة ، على صورة الحق . ليس فى النار التى حرمت على
الشمس أن تراها ، وليس فى الشمس التى غلبتها النار على
سلطانها فى المعابد . ليس فى شىء من هذا . وجدته فى
آلام الإنسان ليلة أمس ، ثم الدعوات الضارعة إليه فى
السماء .

فتح الأب فمه ثم نسيه مفتوحا ، وصوت أقرب إلى
همس الفحيح يخرج منه بلا إرادة . عينا الأب تسألان الابن
من جديد فى عجب خائف متحفز جبار .

- ماذا قلت يا مجنون ؟
- هناك .. على بعد عشرة أميال .. رأيت النصارى
يصلون .. فدخلت عليهم .. فأعجبني ما يقولون ..

- ١٩ -

وبصوت جبار صاح الأب الغليظ :

- يا دعوة باطلة .. إنهم يعبدون ما لا يرون ونحن نعبد
ما نرى توسلا به إلى ما لا نرى .. هل تضحك يا مغرور ..
لقد كنت حجة الجحوس وفخر هرا بذهتهم .. كفاك ..
يا بوران الغالية .. هاتى أغلظ قيد من الحبال لأضعه فى
يدى ورجلى من كنت أناديه « أنا » ..
وأجهش الرجل بالبكاء بعد أن تركه ، وذهب إلى النبار
المقدسة فى البيت وسهر إلى جانبها حتى نهاية الليل .

★ ★ ★

أما الشاب فقد بقى مقيدا فى حجرته ، وكلما دخل عليه
أبوه رأى على وجهه آيات نادرة . آيات معرفة قد تبدو
العين معها زائغة لكن الوجه مستنير . مثل استنارة القمر بنور
الشمس .. نراه وإن كنا فى الظلام ..
ودخلت عليه (بوران) تبكى ومعها طعام فأعرض عنه ،
فجلست إلى جواره ، فاحت منها رائحة السكينة وإن أحس
بوضوح إحساسا كأنه جديد — إنها من عبدة النار ،
ولاحت له عيناها الفارسيتان المكحولتان وهما مائجتان
بالدمع مثل بحيرة سوداء . وفاحت فى حجرته رائحة حب
إنسانى على عظمته وقوته بدا جاثيا تحت أقدام حبه الجديد
الذى أخذ عليه العقل والقلب .

- ٢٠ -

واغتصب ضحكة وقال :

- بوران .. إن ملكة الصين المكحولة بكحل فارس هذا
الذى فى عينيك .. لتسجد لك إن رأته ..

قالت ودموعها تصل إلى ثناياها وهى تبسم :

- ماذا قلت يا أخى ؟ .. إن كنت تحبني حقاً فارجع عن
الدين الذى دخلت فيه .

فأجاب مهموماً ، هم الذى يود أن تشمل النعمة الجديدة
ناساً يحبهم :

- آه يا بوران الغالية .. ليتك يا حبيبتي تشعرين بما أشعر
به .. الجنة الآن فى داخلى .. ذراعى خلفى وقدمائى
موثقتان والراحة تملأ القلب . عيني وراء أفقكم يا بوران ..
هناك صلاة ذات أجنحة ترتفع بأصحابها إلى السماء ،
وهناك صلاة كسلاسل المينا تشد السفينة إلى الأرض ..

- أحل وثاقتك وألقى جزائى ؟ ..

هتف بصوت كأنه آت من عالم بعيد :

- لا تفعلنى .. فالقوة التى حلت وثاقتى القلب ليست

عاجزة يا بوران عن أن تحل وثاقتى قدم .

ثم ابتسم دامعا . وتركت له الطعام وخرجت لأنه رفض يدها .

ودخل الليل فجاء أبوه . ألقى عليه نظيرة وأطفأ النور وأغلق الباب وانصرف . وسكنت القرية . ليس فيها إلا أنفاس الرياح ثم أخذ البرق يلمع . وليس هناك صوت مطر لكن الرعد يدمدم على ارتفاع عظيم كجبال من الحجارة يأتى صداها إلى الأرض . وشعر الشاب كأن شيئا قديما يتداعى لكنه على قدمه ضخمة . فذكر معبد النار على التل . وأركانها الثمانية وأبوابه المتعددة وصوت الهاون الذى يدق نبات « الهوما » المقدس ليرش فى أرضه . وأخذت جبال الأحجار تتداعى من جديد ، ثم لمع البرق . دخل شعاع منه إلى حجرة الشاب فوقع على الحائط المقابل للنافذة فلمع السيف الأثرى فى ترف . وهتف الشاب فى نفسه كأنما ذكر شيئا . « يا مخلص الأسرى » وصمم على أن يصل إليه على الرغم مما فى ذلك من مشقة ومخاطر ، وهو حين يزحف موثوقا حتى يصل إلى الحائط فلن يستطيع الوصول إليه إلا عن طريق الرجلين . وها هو ذا وميض البرق يتوالى وأخذ السيف يرسل بوميضه كأنه ينادى الأسير . وصل إلى الحائط ووضع عليه رجله واحتمل .. وهو يقف على رأسه قليلا — فى أن يجعل القيد بين الحائط والسيف .

- ٢٢ -

وساعده عوده الطويل على أن يصل بقيده إلى مقربة من
حمالة السيف ثم ارتقى بكل قوته إلى الناحية المضادة فانخلع
السيف من الحائط وانغرس فى الأرض .

صلصلت فى الظلام حركة سيف وحيد ثم خرست
فأيقن أنه وقع على شىء لين . وعندئذ تنفس الصعداء . فقد
كان ممكنا أن ينغمس السيف فى جسمه . ولكن القوة التى
حلت وثاق قلبه غير عاجزة عن حل وثاق رجله .
واتكأ بظهره للحائط وجلس صامتا . قلبه يخفق بسعادة
غريبة . منتظرا أن يدلله السيف - بنفسه - على مكانه .

وعاد البرق يلمع فرأى موقع السيف . زحف إليه حتى
لمسه بقدمه وهو مغروس فى الأرض فانطوى عليه وجعل
ذقنه فوق مقبضه فثبتته فى الأرض قوته الفتية ، وبعدئذ أخذ
يحك القيد فى السيف . وانبعث فى الظلام صوت معدنى .
ينشر كتماننا كان له فى أذن الأسير صدى الأناشيد
والصلوات . وشعر أن المشقات أعظم الأبواب التى تؤدى إلى
اللّه . وأن الذين يعانون المشقة فى دنياهم محسبون على اللّه
فى آخرتهم .

وعاد البرق يلمع . فوق ضوءه على أوانى الفضة .
فأحس وهو منغمس فى قطع الحبال أن هذا السيف الأثرى
كتب له أن يخدم الله على طول المدى . ولو أنهم قالوا عنه :

- ٢٣ -

إنه كان فى يد قاطع طريق وأن أحد أجداده ظفر به وقتله
وأخذ سيفه هذا .

وتنهذ : « لكأنما عاش السيف ليكفر عن سيئات غير
محسوبة عليه . بل على اليد التى كانت تحركه » .

ثم نددت منه تنهيدة ارتياح . لقد انقطع الجبل . وها هو
ذا يشعر بأن قدميه قد حررتا . شعر فيهما بقوة عاتية . خيل
إليه أنه قادر على أن يضرب الجدار بأحدهما فيتداعى ، وأنه
قادر على الجرى بهما حتى الشام . موطن الدين الجديد ،
والذى دله عليه النصارى حين سألهم عن موطن دينهم .

وتأوه : « الشام » .. آه « الشام » .. لا بد من الذهاب
إلى هناك ولو كلفنى ذلك حياتى .. » .

وشعر أن مسقط رأسه ليس فى هذه القرية يل هناك فى
أرض عرفها قلبه وإن لم ترها عيناه .. كأن القلب ولد فيها
.. هناك سيجلس تحت ظل الله . وليس قدره فى يديه
القويتين ولا عند أبيه ذى الجاه والمال والسطوة .. لم يعد
يرى الله فى شىء مما حوله . إلا فى بريق هذا السيف ..
أما بقية ما رآه فكأنه فى خصام مع الحقيقة المطلقة تلك التى
لمست قلبه ريشة من جناحها الأبيض .

- ٢٤ -

ووقف منتصباً وسط الحجرة ، ثم أولى ظهره للسيف وجعل يحك وثاق يديه فيه بحركة متمكنة ، فسقط على الأرض .

وجه إليه الشاب كلمة عتاب : « يا سلاح الله .. » ثم رقد على الأرض والتقط السيف بين قدميه وقذف به مصوباً نحو باب الحجرة ، فانغrust نهايته فى الخشب فسار إليه . وهناك غمسه فى الخشب أكثر وأكثر بظهره القوى وجعل يحك وثاق يديه فى حدة حتى تحررت يده من القيد . صفق بهما فى الظلام ثم نزع السيف من الباب وقبله : « يا سلاح الله » .. واحتضنه كأنه ولده . ثم فتح النافذة وألقى نظرة على القرية النائمة .

★ ★ ★

قرر أن يغادر الدار قبل انبلاج الصبح . وشعر بفرحة العودة وانقضاء الغربة مع طول الطريق وقلة الزاد . ولكن فى القلب قوة أعظم وهناك شوق مبهم يخالطه وعد غامض باللقاء ، وأحضان فى رحابة الأبدية ودفء الحياة كلها بكل أنواع الدفء . الريش والزغب والشمس والحب .

ومن الصندوق الكبير المطعم بأغلى الأصداق أخذ كل ما يملك من ذهب .. نقود عليها صور وثنية لكن ذلك لا يضر . فكما أن سيف قاطع الطريق بدأ فى خدمة الحق

فإن النقود ستفعل ذاك . كأنها (خدعة) فى حرب مقدسة .

مر على حجرة (بوران) فدعا لها ، وتصور رأسها الصغير على وسائد القטיפه وبخور من الأعواد المقدسة أحرق فى حجرتها وحلمها بالجاه على حساب المساكين ، فدعا لها .

أما أبوه وأمه فكانهما ماتا وهو صغير ولم ير لهما صورة . وعند نهاية الدهليز نادى الله .. وفى خلفية الدار باب سرى مفتاحه فى قفله ، فى جيب مسحور فى أسفل القفل لا يعلمه إلا ثلاثة ، فكان فى الباب قفلا بلا مفتاح .

سار إليه الشاب . ملأت روحه رائحة وداع ووعد ، أما الوداع فكان صامتا بلا دمع ولا كلام . وأما الوعد فكان فى غموض عبير البستان لكنه يؤكد العبودية .. لكن كيف ؟

وانفرج الباب الثقيل بلا صرير كأنه فى عونه ، ثم رده خلفه .. وقابلته آخر ظلمات الليل وفطن إلى نفسه .. ها هو ذا فى ملابس أولاد الدهاقين . حرير وقטיפه . وفى جيبه نقود ذهبية .. وضحك وهو يضع كفه على فمه حتى لا يسمع صوته حين اكتشف أن السيف معلق فى كتفه .. « الله .. فارس بلا حصان .. ومعه سيف أترى .. محلى بالجواهر .. » .

- ٢٦ -

وعاد يهمس بضحكة .. ويقول فى نفسه : « ليست خطا اليوم من صنعى وحدى .. بل أحس بقوة علوية لها الملكوت جعلت هذه المتناقضات فى مظهرى .. » .
ومشى .. كأن خطواته من هذه اللحظة أشبه بحركة المأخوذى .. يوم نشعر بأن إرادتنا متصلة بما هو أسمى من العصب المادى فكأنها صورة من شعاع عكسته مرآة .. وهكذا كان .. ولذلك سار - نحو حظيرة الخنازير ودق الباب .

لم يسمع صوت إنسان ولا حيوان فى الداخل . ولم تكن الروائح المنبعثة من الحظيرة فى أنفه تحمل حديثها القديم بل حملت سرا آخر خاصا بها إذ وصلت إليه هو .. هو وحده .. وكذلك تدرك الأشياء ..

وعاود الدق .. رد عليه صوت مذعور فى شبه صراخ :

- نعم يا سيدى ..

وهرول الداعى وهو يردد الرد :

- افتح يا سيدى ..

ووقف الرجل خلف الباب مذعورا مذهولا يده لا تقوى على أن تلمس المزلاج .. أحد الناس ناداه بسيده .. راعى الخنازير هذا . وفى صوت من ناداه رنة صدق ، أحس معها الراعى أنه سيد حقا . وكأنما لذ له أن يستعيد ما حدث .. ظمأ يريد صهريجا بأكمله ليرويه .. فعاد يسأل فى مراودة :

- من ؟ من بالباب ؟ .



وتصبر رأسها الصغير على وسائد القطيفة ،
وبخور من الأعواد المقدسة أحرق في حجرتها

- افتح يا سيدى ..

ففتح الراعى فمه ونسى أن يفتح الباب : « ابن الدهقان ؟
هذا ليس معقولا .. يا إله النور هل آن لك أن تنتصر على إله
الظلام ؟؟ » .

وفتح الباب فدخل الشاب وقال للراعى :

- هذه الملابس لم تعد تناسبنى .. خذها وأعطنى
ملابسك .. وخذ من المال ما شئت ، لا تقاطع ولا تمانع فإن
السيف الذى تراه معى بدأ يعمل أعمالا خارقة .. وقد كان
من قبل فى يد قاطع طريق (وابتسم) فلا تجعله يترد إلى
أصله أيها الراعى .. وأنا أعلم أنك لن تلبس هذه الملابس
ولكن ممكن أن تبيعها .. لا تخف . فليس لى علاقة بها منذ
الآن .. أصبحت ضيقة على جدا . أحس أنها تخنقنى .
ولا تذكر أنك رأيتنى لأنك إن فعلت ستموت بسيف
كثيرة . إن الله قد امتحنك بى أيها الراعى .. لا شك أنك
رجل طيب .. فسارع ونفذ ..

كان الرجل يسمع صوتا غريبا . شخص يعرفه وصوت
ينكره .. فبدأ الشاب فى خلع ملابسه لكن الراعى سارع
وأحضر له حلة كان قد جهزها للعيد جديدة نظيفة ، وأخفى
ملابس السيد فى مكان ما حتى يثوب إلى رشده .. وأخذ
الشاب قبل أن يرحل إحدى الخرق ولف بها مقبض السيف
المحلى بالجواهر . ثم ودع الراعى ومضى .

٢

يس الخبز الذى يحمله وهو فى انتظار القافلة التى ستأتى من الجنوب ليركب معها إلى الشام ، حيث سيلتقى هناك بأساقفة دينه الجديد .

وكان معه رجلان من النصارى ملأهما الخوف من أن يعرف أمرهما وهما يدلان ابن الدهقان على الطريق !

وجعل الشاب يتأمل أعينهما القلقة وهو يقول فى نفسه :
« إنك إذا أصبحت أنت والذى تحبه كلا واحدا فإنك لن تحس بوجودك خارجه ، ومن أجل ذلك فلن يكون لك كيان مستقل فأنت إذن لا تخاف » . ثم هتف فى سره : « لكأننى ريشة غير محددة فى الجناح العظيم الذى يظل الكون . لكأننى ريشة مكررة تقع من الجناح فى كل مكان منه فأصبحت هى الظل المستظل .. فكيف أخاف ؟ ! »

وعندما سمعوا حذاء القافلة خرجوا من الكهف ، ولما رأى الشاب نور الشمس يملأ الوادى الذى يسلكه المسافرون شعر كأنه ولد من جديد . وكانت الدواب التى تحمل السجاجيد وكثيرا من بضائع فارس تسير فى نشاط بعد راحة يوم فى الطريق ، ومن أجل ذلك تأخرت .

- ٣٠ -

وركب بعد ما أوصى به صاحبه وتركاه وعادا إلى القرية ..
 وهناك سمعوا نبأ اقشعرت له أبدانهم ؛ نبأ سبقهم كأنما ليكون
 في استقبالهم وهو أن ابن الدهقان قد مات .
 واجتمع ناس من الفلاحين عند بيت النار على التل ۞ وسار
 بعض الأغنياء وعلى وجوههم آيات كدر لوقوع مثل هذا الحادث
 لمثل هذا الشاب . أما الأب فقد أحس بأسى يخالطه فتور مستريح ،
 أسى من دفن عزيزا عليه عز عليه أن يعذبه المرض أو يلوته العار .
 لذلك فإنه عاش في حزن صامت . لا يسأل ولا يجيب .
 أما (بوران) فقد مزق الحزن نفسها . حتى ودت لو أنها
 صاحبه حيث كان ولحق بها ما لحق به .
 فهناك على حدود أرض أبيه وجدت ملابسه ملوثة بالدم وفي
 الصدارية المزر كشة الأرجوانية طعنات سنياف قاطع . الصدارية
 والحزام في مكان ، والسراويل في مكان أبعد .. وسيف مكسور
 وبقع دم على الأحجار المنتثرة والمؤدية إلى طريق وعر تنهض بعض
 القمم على بعد منه وتفرغ بعض الكهوف أفواهاها على جنباته .
 وفي بيوت النار صلوات وفي قلوب أهل الدار أحزان .. وكل
 الذي حدث بفعل الأب ۞ أخذ (طقما) من ملابس ابنه وفعل به
 هكذا . وأحس بعدها راحة موهومة . راحة من دفن ابنه حقا ونجا
 من العار .

أما الراعى فقد كان بما عنده يعلم السر . وكان يذهب من وقت
لآخر إلى حيث هذه الملابس المخبوءة ليقبلها ويشم فيها رائحة
الإنسان ، ولم تكن السعادة التى فى قلب الراعى أقل كثيرا من
السعادة التى ملأت قلب الشاب والقافلة تسير به نحو نهر دجلة .

ودخل عليهم الليل فتألأت النجوم . وأخذ شاب يغنى فى
مؤخر القافلة . كان عربيا جميل الصوت متوسط العمر بهى
الطلعة ، وسمع الشاب غناؤه فسحره . لم يعرف بعض ألفاظه لأن
العربية التى تعلمها من أصحاب أبيه الذين كانوا يفدون من أرض
الجزيرة وما بين النهرين لم تكن تسمو كثيرا إلى ما يتغنى به
الشاب .

لكن الوله كان يفوح من كلماته . مثل نبات لا يعرف اسمه
لكن رائحته تخاطب القلب . شىء كهديل الحمام أو لغة الموسيقى .
وشعر الشاب برغبة فى أن يكون إلى جواره فتأخر حتى سار
إزاءه ، وبادله الحديث . بدأه ابن الدهقان قائلا له :

— إن صوتك أشجاني . ما اسمك أيها العربى ؟

— آه .. اسمى سهيل .. هل ترى اسمى بين النجوم !؟

(ورفع العربى وجهه إلى السماء وتبسم) انظر .. إن سهيلا
يرتفع هناك ناحية اليمين .. أيها الفارسى ، إن صوتك فى الظلام
يبدو وكأنه يحمل رنة العظمة . ما اسمك ؟

— ٣٢ —

— اسمى !؟ .. اسمى ابن الدهقان ..

— هكذا فقط !؟

— هكذا فقط !

— حسن .. (صمت وبعد قليل) ولماذا أنت مسافر !؟

— بسبب الحنين .

— لكن وطنك ليس الشام . بل أنت من فارس !!

— غير أن من أحبه فى أرض غير أرضى !!

تمايل العربى وهو راكب وكأنه سكر بشيء وأخذ يغنى
للحب . عادت نبرته أكثر رقة ورطبت بخته نداوة الدموع .
وعندئذ بكى الشاب ، وكف العربى عن الغناء وسأل رفيق
سفره :

— هل قلت شعرا فيمن تحب ؟

رد عليه صوت مشروخ فيه الأسى والرضا والشوق والصبر
والاستعداد المطمئن لحمل المشقات :

— قلت فيه شعرا صامتا . هل تعرف نظرات العبادة !؟ حين
ترى العين من تحبه ولا تراه فى وقت واحد !؟ وهل سمعت أذنك
ذات ليلة صوتا ثم فتشت عن مصدره فتحيرت وأنت سعيد حين
أدركت أن أذنك سمعت قلبك !؟

- ٣٣ -

- أيها الفارسي .. أذهلتني .. ما سمعت قط مثل هذا الكلام .
آه .. أوتينا البلاغة وأوتيتم الحكمة .. فمن تحب يا ابن
الدهقان ؟ ..

- حبي جديد قديم لا أول له ولا نهاية ، لأنه عبير ذلك
المحبوب .

رد العربي بعد تأمل :

- أيها الفارسي . إنك تتكلم عن (دين) . أليس هذا
حقا ؟

- بلى .. إنه حق !!

- وهل أنت فرح به ؟

- بل أنا ثمل به ، وما دينك أيها العربي ؟

ضحك العربي فى حرج وعاد يغنى :

« يا حبيبتى عندما يسألوننى عن دينى فابتسمى لهم ...

« عندما يرون بريق الندى على ثيابك يا بيضاء سيكفرون

بالأصنام ..

« حتى عبدة النجوم والكواكب سيسجدون لعينيك فى

ليل شعرك الأسود ..

« الحياة والموت فى كفيك كأسان مترعتان بالسكر ..

« وعندما يسألوننى عن دينى فابتسمى لهم

يا حبيبتى ... » .

(الباحث عن الحقيقة)

- ٣٤ -

وصمت . وسكت الليل . ولم يعد يسمع إلا جرجرة
الدواب على الطريق . وعندئذ قال الفارسی فی نفسه :
« إنه وثنى » . لكنه شعر نحوه بحب مطرد . وأحس كأن
علاقة عميقة الجذور تنبت الآن على شغاف القلب .

★ ★ ★

وها هو ذا نهر دجلة يلمح لعين المسافرين ...
والشمس تفرش الشط بأشعة لينة ، والفارسی يتأمل وجه العربی
والعربی يتأمل وجه الفارسی وهما واقفان متجاورین كأنهما
صديقان منذ أعوام .
كان النهر فی إبان فیضانه والسفينة الكبيرة راسية على الشط
والحمالون دائبو الحركة . هناك صناديق يستعصى حملها على
الرجال ، فتقدم إليهم الفارسی مساعدا فرأوا منه العجائب .
وكان سيفه الأثرى فی يد العربی يحملق فی حده بعدما أخرجه
من غمده الجديد .

وعندما فرغوا من شحن السفينة قدموا إليه بعض الدراهم
فرفضها . إن معه نقودا وهو منذ اليوم عازم على ألا يأخذ أكثر مما
يحتاج . وقد عرف بوضوح حدود حاجاته .

وإذا كان البناءون لا يأخذون أجرا على إقامة أحنـد بيوت
النار فى بلاده التى تركها خلفه ، فكيف يأخذ هو أجرا
على أنه ساعد على السير بسفينة يركبها فى سبيل
الله ؟

وأكل العربى والفارسى من طعام واحد عندما بدأ شاطئ
عاصمة آل ساسان (المدائن) يتعد قليلا قليلا . وكان النهر
على الماء وريان السفينة بجوسيا فسمعه الفارسى وهو يتمم
بأدعية الجوس ، وخيل إليه أن السفينة ستعرض للخطر .
وما لبث أن سمع أدعية تنبعث من بعض النصارى جنب أحد
الصواري ، ثم انتشرت الأشرعة فـما لبث أن سمع صديقه
العربى ينادى اسـما عرف أنه اسم صنم .

وعندئذ هاجت فى نفسه خاطرة عجب لها ، وأحس أن
الله لابد أن يجرى بها مقاديره . وإذا كانت كل الطرق
تؤدى إليه فليس معنى ذلك أن الخنـسيس منها يؤدى إلى
الله !

والفكرة العظيمة لا تأتى إلا نتاجا لإحساس عظيم يسبقه
إرهاص عظيم يهيئ النفس لهبوط الفكرة ، كما تتجلى
الطبيعة لمقدم الربيع .

وفى الليلة التالية كان النهر ثائرا . وكف ركاب السفينة
عن الكلام كأنهم يرون الموت تحت كل موجة ، وكان

- ٣٦ -

الفارسى يقول فى نفسه : « ربما جئت لألقى الله فى
النهر !.. إننى الآن على يقين من أنه خارج بيوت النار ..
هو هناك أيضا على الجبل الجاور وفى السهل الذى يطل عليه
ذلك الجبل . وهو هنا فى النهر ... فرمما جئت لألقاه
هنا !! » وتبسم لنفسه . وعندئذ جاءت من العربى تنهيدة .
فقال له الفارسى وهو يربت كتفه :

— غن يا سهيل .. لماذا كففت عن الغناء ؟

ضحك سهيل قائلا :

— وهل هذا وقت الغناء يا حديد القلب ؟

— الغناء دعاء ، فلو كنت محبا لمن تغنى له لغنيت ساعة
المخاطر . ليكن غناؤك عبادة لا شهوة .. ناد اسم صنمك !.
فهمهم سهيل به على استحياء ، فقال له الفارسى :

— ما لى لا أشم من ندائك رائحة الحقيقة . لا تظننى
يا أخى أسفه إلهك ولكنى أسفه ضحالة العلاقة بينك وبينه
الآن . لو كان حاميك ما أخافك النهر .. انظر واسمع .. فلو
تصورت أنك تعبد هذا النهر كبعض الهنود ربما لم تخف من
الغرق فيه . ولو عبدت إلهها تسع مملكته السماوات والأرض
ما خفت من شىء فى الأرض إلا مما لا يرضى هو عنه .
غن يا سهيل . إن كنت تحب صنمك فغن له فى المخاطر

— ٣٧ —

بقلب مطمئن . ألا تسمع همهمة الجوسى ... إن فكه يرتعش من الخوف من إله الظلام ..

وضحك الفارسى . وأخذ النهر يمرجح السفينة وأخذ النوتية ينزحون من السفينة الماء الذى اندفع إليها . ولم يلبث الفارسى أن نهض وتبعه العربى ففعلا مثل ما يفعل النوتية .

ولم تلبث ساعة الخطر فى هذه المنطقة الشديدة الانحدار أن انحسرت وبدأ على الأفق ذلك اللون البنفسجى الساخر . وولى الليل ، وكان الجهد قد أخذ من الركاب كل مأخذ ولم يكن مع الفارسى ملابس غير التى يلبسها الماء لكن العربى ألبسه بعض ثيابه حتى جف ثوبه المبلل ، وأخذوا يأكلان معا طعاما بعضه من المدائن وبعضه من بلح الجزيرة . ولما هدأت الخواطر أخذ سهيل يغنى وهو يتسم .

« يا حبيبتى .. عندما يسألوننى عن دينى فابتسمى لهم ... »

« عندما يرون بريق الندى على ثنايك يا ييضاء سيكفرون بالأصنام ... » .

وعندئذ ضحك الفارسى والعربى فى نفس واحد . وقال الفارسى فى سهوم وفمه على مقربة من أذن سهيل :

— سهيل ..

— نعم يا صديقى .. أنت مصدر طمأنينة عظيم ..

- ٣٨ -

— سهيل . ابحث عنها تجدها .. إنها ليست بعيدة المنال .
سهيل .. فى داخل كل منا نوع من الحشرات السامة ولن
يستطيع قتلها إلا ذلك الذى تسكنه لأنه أدرى بأجحارها
ومساربها ، وبعد أن يفعل ستزول الطمأنينة حيث كانت
هذه الحشرات . قل يا سهيل .

— نعم .

— إنك تتوسل بالصنم إلى الله .. هه ؟

— لا أحد يقينا ..

— فإنا كنت تعبد الله لأنه خلقك فأحرى بالصنم أن
يعبدك لأنك خلقتة ، وليس العكس ، مالك صامتا .. إنك
لا تجد اليقين ؟ حسن .. هذا خير .. وأنا مع يقينى أشعر
أننى أبحث عن شىء . فبعض اليقين مرحلة ليقين أعظم .
ألا ترى أن الجوسى والرثنى والإلهى فى هذه السفينة يظن
كل منهم الآن أن إلهه هو الذى نجّاه من الغرق ؟ وليس
ذنب الإله العظيم أن ينسب الجهال بعض أعماله إلى (ما)
لا عمل له . سهيل .. أطعمنى من ثمر جزيرة العرب ثمرة
واحدة فإنى أجد لطعمها حلاوة فى نفسى قبل فمى ..
لست أدرى لماذا ؟

رد سهيل فى همس :

— يا صديقى الفارسى لقد وصلت بى الآن إلى مرحلة
كنت جاوزتها من قبل .. مرحلة ألا أؤمن بشىء .. وقد



سهيل .. اطعمنى من ثمر جزيرة العرب ثمرة
واحدة فيانى اجد لطعمها حلاوة فى نفسى قبل فمى

— ٤٠ —

عذبني عليها أبى وكان يستصحبني قهرا إلى بيت
الأصنام ، وهناك أقف فأردد ما يقولون .. غير أن
القلب لا يمكن أن يعيش هكذا .. قلب لا صلاة له .. إنه
لن يكون إلا كـ بعض الأزهار التى رأيتها فى بساتينكم تشبه
العيون ولا ترى ، وقبل ذلك فهى لا رائحة لها .. (وتأوه
العربى ..) .

— لا تحزن يا سهيل .. ولكن لا تنس نفسك ..

★ ★ ★

وعند مدينة (آمد) قرب نهاية النهر اختلفت الطريق بالـصديقين
وأصبحت القافلة قافلتين .

فسار الفارسى مع النصارى وسار سهيل مع بعض صحبه ..
وكانت الرحلة برية منذ الآن ..

وتعانقا وفى عينيهما دموع . وقال الفارسى للعربى :

— عندى شعور عليه ظل اليقين أننى سألقاك يوما ما ..

— ربما كان المنى على هيئة شعور .. لعله الحنين يا صديقى كما

تعلم ..

— لقد تركت خلفى أشياء كثيرة يا سهيل لا أرانى نادما عليها ،

ولا شاعرا بالحنين إليها .. ورائى أب وأم وإخوة وجوهر

وزهب ، وأرض ورقيق ومركبات يا عربى . وسلطة ومكانة .

ورائى فى أرض ساسان كل ما تشتهيـه نفس شبابها ..

— ٤١ —

لكنى لا أحن إليها .. لكنى أيتها العربى أشعر وكأن شيئاً
من دمكم يجرى فى عروقى ..
تأوه سهيل :

— ليدعو كل منا إلهه بأن نلتقى مرة أخرى ..
جلجلت ضحكة الفارسى ساخرة :
— لن نلتقى أيتها الصديق إلا إذا كان إلهنا واحداً .. تعال
أقبلك ..

ثم افترقا على الطريق .. وبعد قليل من الزمن وسواد
القافلتين لم يرغب عن العيون ، كان الفارسى يجرى فى اتجاه
العربى من جديد وكان العربى بالتالى يجرى فى اتجاه
الفارسى . التقيا والعرق يتصبب منهما .. فتبادلا السيوف
والقبيل . فقد كان كل منهما قد نسى سيفه مع صاحبه . ثم
فطنا إلى ذلك .

وعندئذ قال العربى لصديقه :
— ألا ترى أن هذا وعد جديد باللقاء ؟! رافقتك السلامة
يا صديقى ..

★ ★ ★

٣

« آه يا رب » رأيت كثيرا من عبادك على رقعة فسيحة من الأرض ، قليل منهم يعرف الطريق إليك وكثير منهم عاش يدور فى حلقة مركزها نفسه ومحيطها شهواته .. إن نورك الذى يغطى السهل والجبل غير بعيد على بطون الكهوف ونفوس المخطئين ، وهأنذا أحس يا ربى أنك تختص بعظيم أسرارك كل الذين يبحثون عنها كأنك تسعى إلى من سعى إليك وتنسى من ينساك .

رأيت كثيرا ممن لا يعرفون حقيقتك يخدعون الناس عنك . وقد بكيت عندما رأيتهم يوهمون الناس أنهم واقفون ببابك يأذنون ويمنعون ، فبكيت من أجل أولاء المحرومين أكثر من الذين حرموهم ، لأنك لن ترضى عمن يسمحون لغيرهم بأن يبيعوهم رضاك وكلهم عبادك .

هأنذا سائر فى طريقى إليك مرة رابعة . ركبت ومشيت وجعت وعطشت وبنت فى العراء ، وليس هذا منا عليك يا إلهى ، ولكنه صلاة فى قدس محرابك . فاقبل صلاتى واهد خطواتى . »

هذا ما كان الفارسي يهتف به وهو يرى على البعد مشارف مدينة « عمورية » بعد ما ترك « نصبيين » وبعد ما أقام بها مدة من الزمن . كانت نفسه مليئة بالقلق في هذه المرة ، وهذه هي أرض الروم التي يظنها خاتمة مطافه بعد أن ترك أرض الشام . سائر على طريق يلعب بآثار المطر شاق يرتفع بشكل غير تدريجي وحدائق اللوز والبندق والأعشاب تنتشر في بقاع متفرقة ، وبنية على السفوح ذات طراز روماني وأكواخ رعاة . والشمس تلقى بشعاعها بين غلالات الضباب على الجبال فتعطي ألوان الطيف على القمم ، وعين المسافر مأخوذة وقلبه مشتاق .

ولم يلبث أن مر على دسكرة من الدساكر^(١) المنتشرة في الإقليم فلقى رجلا أنيق الهيئة يقود حصانا ليس عليه سرج ، وفي فمه شيء يمضغه وفي يده بقية منه لم يعرف ما هي . واستوقف المسافر بنظرة من عينيه القويتين . كانتا لم تتأثرا بوغاء السفر وإن بدا جسمه ضاويًا إلى حد ما . ووقف الرجل وهو يمضغ وعينه تستجوبان المسافر في غير مودة ، وعندئذ سأل المسافر :

— أين تقع صومعة الـ ..

(١) الدساكر : القرى الصغيرة .

- ٤٤ -

فقاطعه الثانى ولم يكف عن المضغ :

- لست أعرف شيئا عن الصوامع .. أنا أريد سائسا للخيل
فتعال إن شئت ..

والتقت العيون بعد ذلك فى تحد مثل ضربات السيوف . فقد
شعر الفارسى أنه اتهم بالتسول ، ولم تفارق عيناه وجه الرجل حتى
شل حركة فمه وتوقف عن المضغ ، وفجأة وثب إلى ظهر حصانه
العارى وركض به .. ترى مم خاف ؟ .

وواصل المسافر طريقه فقابله أحد الرعاة معلقا مخلاة فى عصا
سائرا يترنم .. ولما استوقفه بنظراته حملق الراعى فى عينيه وحاجبيه
المقرونين ، وسأله المسافر :
- أين تقع صومعة الـ ..

فقاطعه الراعى بسرعة شديدة ، واتجه إلى ناحية الشرق وأخذ
يشير :

- على بعد فرسخ واحد ستجد تلا عليه كنيسة قديمة ، وبعد أن
تترك التل والكنيسة ستجد سهلا صغيرا فيه صومعة السيد العابد ..
وهمهم : امنحنا اللهم بركاته » ..

★ ★ ★

ولم يكن أحد على مقربة من المكان ، ولم يكن على مسكن
العابد علامة تدل عليه إلا الوحدة والتفرد . وأحس المسافر بعظمة

— ٤٥ —

التوحد فى هذا المكان الذى يشبه القطعة الخضراء بين تلك التلال المحيطة . وعدل من هندامه شيئاً ما (إذا صح هذا التعبير) وألقى نظرة إلى السماء وتقدم من الباب بخطا مشتاقة .

المكان بقية من بناء تداعى من الخلف وبقي جزؤه الأمامى ، والجزء الخرب يعادل تسعة أعشار المساحة والباقى العشر . وهناك فى الخلف آثار سور بنى على الطراز الرومانى كما أن الباب يومئى إلى نفس الطراز « وعلى المدخل غموض ذكر الطارق بشيء جعله يتسم : « من أرض كسرى إلى أرض قيصر وهى فى الحقيقة أرض الله » . ودق الباب بقبضة قوية لكن لا أحد يرد ..

وسكت وعاولد الدق لكن الصمت ظل مطبقا فجعل الرجل يقول فى نفسه : « أعوذ بك من دعوة بلا رد ومن عين بلا نور » .

ووقف يتلفت . ومضت على ذلك فترة خالها فى طول الدهر لكنه أحس كأن حركة وراء الباب فوقف جامدا .

وتحرك مزلاج ثم انفتح الباب حتى التصق بالجدار وجاءه صوت خيل إليه أنه لم يسمعه لأن عينيه كانتا مشغولتين بمطالعة الوجه الذى فتح الباب ، وكان الصوت يقول بنبرة وانية مرتعشة :

— هل جئت ؟ .. إننى فى انتظارك .

— ٤٦ —

أخذ قلبه وخطا نحو الداخل ولم يرد بل تنحنح كأنما ليشعر من أمامه بأنه موجود . وشعر الطارق بضالة شديدة على طول العملاق . ولو أن العابد فى ضالة تكاد تبلغ الغاية . وراعه أن سبقه إلى حيث يجلس مشيرا له بيده أن يقفل الباب ويتبعه . وراعه أيضا أنه شبه مكفوف . خطواته وانية لا صوت لها كأن قدميه فى حذاء من القطيفة .. رقبته من الخلف ناحلة وشعره مخلوق كما اتفق وعوده يبدو كأنه صب فى قالب مستطيل من فرط التساوى فى النحافة .

وخيل إلى الضيف أنه يمانع نفسه التى تنازعه من أن يتقدم إليه ويحمله على كفيه حتى يصل به إلى مجلسه ، لكنه ظل يتبعه فى صمت حتى دخل حجرة ذات نافذة لها قضبان من الحديد تطل على الجزء المخرب من المبنى ، وقد فرشت بفراش من الصوف الخشن ذى لون واحد ، وفى ركنها مدفأة من النحاس وفى ركن آخر كتب وحشايا على الأرض .

— آه .. كنت بانتظارك ..

فتقدم منه وقبل كتفيه وجبينه ثم سأله :

— حقيقة أنك كنت بانتظارى .. لكن من أخبرك أننى ..

— ٤٧ —

وقطع العابد عليه حديثه بضحكة طيبة ، وذقنه المدبب يلامس صدره :

— هذه تحية القدوم لكل من يدخل .. لأن الذى يأتى إلى هنا لا بد أنه لاقى مشقة . ولذلك فأنا فى انتظار مستمر لكل من يطرق هذا الباب .. أهلا بك يا بنى .. من أين أنت قادم ؟

— حديث طويل مثل الطريق يا سيدى ..
غمغم العابد :

— مالك ضجرا قلقا مستعجلا نهاية الطريق .. لا يزال أمامك شوط آخر .

فتح الضيف عينيه فى وجل ، فقال العابد :

— عندى دائما طعام لاثنين .. فهل تأكل ؟

— أنا جائع يا سيدى إلى ما هو أسمى من الطعام .

— وهل أنت عابر سبيل ؟!

— لا .. كنت فى (نصيين) مقيما مع (عابد) هناك فلما حضرته الوفاة دلننى عليك ، وقبلها كنت (بالموصل) ، وقبل (الموصل) كنت عند أحد النصارى فى الشام ، وهأنذا جئت لأقيم معك .

— مرحبا بك (وابتسم) .. ولكنك جئت والشمس تغرب .

ليت الله يمد قليلا فى عمرى .. الخيرات كثيرة .. ستزرع معى

الخرائب فى مؤخر الدار وتجنّى معى العنب وتنسج معى الصوف ..
وتلتقى بالرواد . ولكن أيها الفارسى .. كيف حال كسرى ؟
- صديق النار . يعبدّها . ويأكلها . ويجرى لهيها فى عروقه
فيطفئه بالملذات هو وعدد كبير ممن حوله . وطبقة أخرى من
الأغنياء .

- أعرف . وليس قصدى هذا .. حاله ستتحول .. وأنت
كذلك ..

شعر الفارسى بخوف عندما سمع هذه الكلمة وإن كان فى قرارة
نفسه يبحث عن التحول . ها هو ذا قد أمضى بضعة سنين فى
خدمة الأساقفة والأخبار . لكنه يحس بالظمأ والجوع . زاد تطلعه
الروحى بفعل ما لقيه من تناقضات ، فالعباد والأخبار الطييون
أوحوا إليه بشيء أبغى وأشمل وأعم . كاد القلب يلمسه وإن لم
يعرف موضعه . أما غيرهم ممن أكلوا أموال الناس بعد أن جمعوها
للفقراء فقد وقفوا بقلبه على باب نظام جديد لم يكن فى الحقيقة
حلم الفارسى وحده بل كان حلم كل من له قلب . وقال فى
نفسه : « خطوتى وراء أشواقى فأين المستقر يا ربى ؟ » .

وضحك العابد كأنه سمعه ، ورفع صوته قائلاً للضيف :

- هل معك سيف ؟! أرنى سيفك .

— ٤٩ —

قدمه إليه دهشا . فتحسس العابد حده وهو باسم كأنه
يتحسس وجه ابنه الذى غاب عنه وعاد . ثم رده إليه قائلا له :
— لقد تغيرت أرضه وتغير غمده وأكبر الظن أن هذا سيحدث
لصاحبه .

— إننى خائف يا سيدى ..
— من نفسك التى ستفقدتها أو نفسك التى ستجدها ؟ قص على
حياتك فى بلادك .
ففعلى ..

★ ★ ★

ولما فرغ الفارسى من قصته بدا عليه من الجهد والتأهب
ما أحس به العابد . كانا جالسين على حشية مشتركة كبيرة محشوة
بالقش . فتحسس العابد كتف الشاب العريضة وقال له :
— قم بنا لأريك معالم المكان ..

ونفذا إلى الشمال من بقية باب فى نهاية دهليز طويل تفوح منه
رائحة رطوبة . كأنما كان فى قديم الزمان مدخلا لسجن . وعند
الباب من الشمال تقع رقعة كبيرة من الأرض ، منبسطة تقريبا وفى
نهايتها وأرفع مكان منها بئر عميقة وحبل دلو . وبجانب كل هذا
بعض أدوات الزراعة . وبعض شجرات عنب وأشجار من فواكه
وخضراوات لا تجدد من يرعها .

— ٥٠ —

كانا يجولان معا فى هذه المزرعة التى تكاد تبلغ فى مساحتها بضعة فراسخ مربعة . العابد أمامه وهو يتبعه كأنه يدلّه على طريق . وأحس الفارسى برغبة شديدة فى أن يعمل بهذه الأدوات مثل رغبته تماما فى أن يصل إلى الحقيقة المطلقة التى يقطع فى سبيلها أركان الأرض . ولم يلبث الرجلان أن وقفا إلى حوار البئر وجاء صوت العابد وانيا :

— هلم .. اسق هذه الخضروات وعد إلى الداخل لتتناول طعامنا معا . وإذا رأيت أنك لن تخلص من عملك قبل دخول الظلام فتوقف عند غروب الشمس ، وستجدنى هناك قد أوقدت المصباح وأعددت العشاء يا ولدى ..

ثم تركه وسار يتدحرج . خطواته لا تسمع وهيكله لا يكاد يرى . وتبعه الفارسى ببصره وخيل إليه أنه فى حلم . هذا الرجل الذى طبقت شهرته الآفاق تفتححه العين لأول نظرة ، لكنه إن يتكلم تغير الموقف .

ومال الفارسى على الماء وأخذ ينزح . وكان يتأمله وهو يجرى فى لجج فضية متتابعة نحو أرض المزرعة الصغيرة التى تقيم أود النفس الكبيرة . وأخذ يوازن بينها وبين مزرعة أبيه التى يملوها العبيد . ثم مال يسأل نفسه وهو يحملق فى أعماق البئر .. « لماذا لم يرحلوا كما رحلت ؟؟ فمزرعة صغيرة بها حُر واحد أخصب من مزرعة كبيرة سكانها عبيد » ..

- ٥١ -

وأخذ يتصور أفواجا من الناس قد ملأهم العزم الذى ملأ قلبه
خارجين من أرض كسرى ليتركوه وحيدا فيها .. « عندئذ لن
يستطيع كسرى أن يكون الظالم لأن الظلم لا يعيش إلا على
المظلومين » .

وتنهذ وزقزقت فوق رأسه طيور لم يسمع مثل صوتها قبلا ،
وفرغ من عمله والشمس لا تزال على مقربة من الأفق . فعاد
أدراجه .. قطع الدهليز الطويل مرة أخرى فى ظلام لا يخيف
ووصل إلى حجرة العابد ، فلما أحس وقع خطواته من بعيد هتف :
- هل تعبت ؟

- بل انتهيت من العمل .

تنهد الشيخ :

- قوة . نفحة من قوة الله .. حسن .. تعال .. مكانك إلى
جانبي فإن الليل هنا شديد البرد .. ولكن قبل أن تجلس ناولنى هذا
الغطاء الصوفى ..

ونشره العابد فإذا به قسمان ملفوفان بعضهما فى بعض بحيث
يمكن فصلهما إن وفد عليه وافد ليكون غطاءين .. وفصلهما
الفارسى وقال له الشيخ :
- هذا غطاؤك .

كان نور مصباح يتتشر فى المكان هادئا ، ورائحة لحم تنبعث
من قدر على نار فى ناحية من الدهليز الآخر . وقام العابد فجهز

— ٥٢ —

عشاء بنفسه من اللحم والخضروات والفاكهة . ولما قال له
الفارسي :

— اترك لي أمر خدمتك ..

قال له :

— سيكون كل شيء بيننا قسمة .. العمل والثمرة .. لكن لن
أبذل أكثر من طاقتي ولن تبذل أكثر من طاقتك .. وسترى أنى
أكل من زرع يدي وألبس من صنع يدي .. العمل والعبادة شيان
مباشران فى نظرى لا واسطة فيهما .. تقدم ونخذ طعامك .. ومنذ
غد سنزرع معا ونسج معا ونعبد الله معا ..

لم يأكل الفارسي طعاما أشهى من هذا .. لم تكن الأواني
لامعة . لا فضية ولا ذهبية كالتى تركها فى أرض فارس لكن
طعامها كان غنيا . ولم يكن الخبز طريا ولكنه طرى بالماء ثم وضع
على النار فصار ذا نكهة . وجعلا يتحدثان وهما يأكلان ..

قال الشيخ :

— سترى هنا ناسا يمرون أثناء عبورهم علينا .. وستسمع

أحاديث جديدة ..

فسأل الفارسي :

— لكن يا سيدى . ما الذى أتى بك إلى هنا فى هذه البقعة

وحبك ؟؟



لكن يا سيدى ، ما الذى أتى بك إلى هنا فى هذه البقعة وحدك ؟؟

— آه . إن لذلك قصة سوف تعرفها . لكن علينا قبل أن ننام أن
نجلس ساعة إلى المنسج فهو مصدر رزق لى .. هلم معى ..
وفى حجرة أخرى كان منسج وخیوط من الصوف شدت
للعمل كلها من لون واحد ، وإلى جانب المنسج قطعة صغيرة فرغ
منها . وعرف الفارسى أنها معدة للبيع . غطاء صوفى من لون
واحد خشن غليظ . يمكن أن يكون فى كوخ أحد الرعاة
أو الفلاحين .

وانكب العابد على المنسج وجلس الفارسى يراقبه . خيوط
(السدى) ممدودة وبينها يجرى العابد خيوط (اللحمه) بأصابعه
المعروقة بلا أدنى مشقة وعيناه قريتان جدا من الخيوط كأنه يقرأ
عليها مكتوبا .

وفى جو المكان رائحة صوف ورطوبة وأرض مزروعة وتوابل
وعرق . لكن هناك رائحة تغطى كل هذا وتطفو عليه هى
رائحة (الفكر والتأمل) . كان الصمت الذى يغلف الأشياء مهياً
لأن ينطق بحكمة لم تسمعها البشرية من قبل :

وأحس الفارسى باستقرار قلبى لا مثيل له ، وجعل يوازن بين
هذه الإقامة وما سبقها من إقامات فشعر بما يشعر به النائم حين
ينقلب تلقائياً على الجانب الذى يريحه بحركة حلم وهو لا يدرى .

تنهد الشيخ وقال للفارسى :

— ٥٥ —

— كنت على وشك أن أخرج صباح الغد لأبيع هذا الغطاء
فعليك إذن أن تفعل ذلك فى السوق القائم على مقربة من
المدينة .

— أمرك يا سيدى .

قال العابد مبتسما وهو يضغط الخيوط :

— هل أصف لك الطريق .. إن مثلك لا يضل ..

— سمع الله منك .. لكنى أود أن أسمع ..

— قصتى ؟؟

— إن شاء سيدى ..

— تعال أولا واعمل بيدك . هاتها . مرر الخيط هكذا ثم هكذا

ثم اضغط .. وباستمرار العمل نحصل على غطاء .

وبعد ساعة من الزمن عادا إلى الغرفة الأولى ..

كان الجو قد تغير . وبدأت ريح لينة تحف بالأشجار . وأوقد

الفارسي لهما مدفأة وجلسا أمامها ، وشرع العابد يقول :

— أنت خير منى أيها الشاب . (فعرض الفارسي شفته استعظاما

واستنكارا) لا تعجب فأنت قد تركت أرضك وأهلك والمراكب

والعبيد وخرجت تبحث عن الحقيقة .. لأنك لم تجد الحقيقة فى

شئ مما حولك . لم تجدها فى بريق الذهب ولكنك ربما ستجدها

فوق رأس نخلة وأنت تحصد أو تحت أقدامها وأنت تزرع . وستجد

— ٥٦ —

تلك الحقيقة المطلقة الكبيرة التى هى الله أو الطريق إليه — ستجدها
فى الحب لا فى الحرمان . ستجدها فى ابن ترعاه لترعى غيره من
عباد الله وفى زوجة تحبك وتخلص لك وتخلص لها . وفى هذه
الأرض تزرع الفضائل . الأرض لا تلغى من الإنسان شيئا بل
تعترف به طينيا ونورانيا ويكون فى كلتا الحالتين عبدا طيبا من عبيد
الله .

وناوله الشيخ قدحا من شراب دافئ وأخذ لنفسه قدحا ..
لاحظ الفارسى أن أصابع الشيخ ترتجف وأن ذكرى إنسانية عميقة
استيقظت فى داخله فعرف أن الطريق إلى التجرد وعمر .
وساد صمت قدسى بين اثنين يسأل كل منهما صاحبه ويدله فى
وقت واحد — عن الطريق إلى الله .

وبعد رشقات من الشراب الدافئ الذى ملأت رائحته المكان
ابتسم العابد وقال :

— إليك إذن قصتى التى سألتنى عنها ناس كثير ولكننى لم أقصها
إلا على قليل من الذين ارتاح إليهم قلبى ..

« كان أبى صيادا لم يبحث قط عن لؤلؤة . (وتبسم) كان
يصيد أردأ أنواع السمك . وكان يحب كل شىء فى الدنيا حبه
لذاته . فكان يحب الصيد الكثير لكى يجعله أميرا على الصيادين .
ويجب أسمى لأنها صورة منه مع اختلاف الجنس . ويجب البحر لأنه

مزرعة لرغباته . ويحبني أنا ابنه الوحيد لأنه يريد أن أرث عرش رغباته .

أما أنا فكنت أحبه بلا تفكير لأنني كنت ابن خمسة عشر عاما .
وفي يوم من الأيام ركب أبى قاربه ومعه أمى ونزلا للصيد معا
فى أسبوع وامتنع فيه الناس عن نزول البحر وانتظروا فلم يعد .
ودعنا من شماتة الناس فيه يا بنى فلو كان عضوا من الجسم
ما شمت الجسم فيه . لكن القصة قصتى .

صرت أنام فى الكوخ وحدى . وكان بعض طيىى القلوب
يواسوننى بالسهر معى حتى أطلب إليهم العودة . لكن بعد أن
يعودوا أحس بأننى على وشك أن أسمع خطواتهم وأشمت تلك
الرائحة المألوفة التى تنبعث من ملابس الصيادين . وتطول فترة
الإحساس هذه دون أن يقطعها شىء .. انتظار عجيب نهايته لا
شىء . فأحس وكأننى سقطت من أعلى جبل فأنهض من الكوخ
وقد أخذنى الدوار وقد فقدت الوعى . وإنما أسير هكذا كما يمشى
حيوان تقوده خطاه ..

وفى كل ليلة يحدث لى هذا . وفى كل ليلة أجد نفسى على
شاطئ البحر وحيدا تنازعنى الريح ثوبى وتبدد ندائى وتكاد تخطف

سمعى من صفيرها فى أذنى . غير أنى كنت أقف وقد سددت أذنى
 بإبهامى يدى ، وصرت أصبح ونصف نظرى إلى السماء ونصفه
 الآخر إلى البحر . هل تدرى ماذا كنت أقول ؟ كنت أقول : « إن
 كنت قادرا بحق يا إلهى فلا تتركنى وحدى . أعد إلى أبى وأمى .
 سأحضر هنا كل ليلة حتى تفعل » ..

واتسعت عينا الفارسى من الدهشة وكانت عين العابد مغرورقة
 بالدمع . وسمع الشيخ تنهد الشاب فتبسم ومد يديه المعروقتين إلى
 بقية الجمر ليستدفى ، ثم استطرد :

— كانت الرعدة تملأ جسمى عقب كل نداء . وكنت أكرره
 بضع مرات « حتى أحس بقلبى أنه فعلا قد وصل إلى الله وأنه قد
 أخذ فى تدبير الأمر فأعود إلى الكوخ شبه محموم .

لكننى فى الليلة التالية لا ألبث أن أحس بالشوق . وكان شوقى
 يزداد ليلة بعد ليلة والخوف بنفس النسبة . حتى شعرت أننى أتمزق
 .. شىء يدفعنى وشىء يردعنى .. كلاهما قوى .. وأنا صغير .
 فكنت أخرج من الكوخ باكى العينين مرتجف الأوصال لأذهب إلى
 البحر وأنادى من كل قلبى .

قال الفارسي في نفسه : « لابد أن يحدث شيء فهو أرحم من أن يدعه يتمزق » . وعندئذ جاءه صوت العابد مسترسلا :
 — لم يرني أحد ولم يسمع ندائي أحد إلا الله . هو وحده الذي يدرك معنى الهفوات ويميزانه الذي لا يحيف يعفو عن السيئات ، فلو سمعني الناس لقالوا إنني مجنون .

لكن المدى طال وأنا أفعل ما أفعل ، كلما سقطت تحت وطأة الانتظار الذي لا يعقل . ثم كانت الليلة الأخيرة . كانت نشيطة الريح فلم أبال . شديدة البرد فلم أبال . كثيرة المخاوف فلم أبال . كان كل هذا باطلا والحقيقة هو ما أريده ، هو أننى سأطلب من الله أن يعيد إلى أبى وأمى ما دام قادرا ..

وقفت على صخرة لأحس أننى مرتفع . والدنيا ظلام والبحر متتابع الموج . وجعلت إبهام كل يد فى أذن ونظرت إلى البحر وهتفت بأعلى صوتى : « إن كنت قادرا بحق يا إلهى فلا تتركنى وحدى .. أعد إلى أبى وأمى .. سأحضر هنا كل ليلة حتى تفعل .. » .

خيل إلى أن صدى الصوت ملأ المكان حتى رددته كل الكائنات فهو يعود إلى من أفواهها من بعيد وقريب . من الجبل والشجر

- ٦٠ -

والموج والقوارب المقلوبة والرمل والسحاب . ثم صمت كل شيء فجأة .

ورأيت أبى وأمى يخرجان من الماء يخوضان إلى الشاطئ كأنهما كانا يستحمان . لكنهما عندما اقتربا منى والماء يغطى نصفهما الأسفل ونصفهما الأعلى عريان ظاهر ، سألانى معا بوجه غاضب وفى نفس واحد كأنهما يلقيان شيئا حفظاه :

- هل تريدنا حقا ؟

فقلت بإخلاص :

- نعم .. وإلا لما فعلت هذا .. لقد سمع الله ندائى ..

- إنه يسمع كل نداء ويعفو عن الجاهلين . هل تود أن نخرج إليك حقيقة ؟

فأشرت بكفى أن « نعم » لأن ريقى كان جافا ولسانى لا يستطيع الحركة .

فتحركا نحوى فإذا بى أرى ما أصرخ منه وأغمض له عيني .
فقد رأيت نصفهما الأعلى كما عرفتة ونصفهما الأسفل على هيئة الأسماك .. فصرت أدعو الله بأعلى صوتى :

« إن كنت قادرا بحق يا إلهى فأعد أبى وأمى إلى البحر فلا أستطيع أن أراهما يموتان مرة أخرى على الأرض كما يموت

- ٦١ -

السّمك . ويكفينّا أن نفقد الأحباب مرة واحدة فى
العمر » .

فسبحا فى البحر عائدين . وشهقت ..
كنت حين شهقت فى كوخ أحد الضيادين . التقطنى ذلك
اليوم من جنب الصخرة وأنا أصارع الحمى . وكان يسقىنى شرابا
دافئا مضافا إليه بعض أعشاب الجبل .
ومنذ ذلك اليوم وجدت فى نفسى شوقا إلى إدراك الحقائق
الأساسية فى الوجود . فتعلمت من الأحبار الذين رحلت إليهم
ما تعلمت .

— ولم تتزوج يا أبى ؟

— ليس عن قصد . فقد ملئت حياتى بالعجائب .. أوه ..
ألا ترى أننا قد قطعنا وقتا طويلا من الليل وأنت متعب من الرحلة ،
آن لنا أن ننام يابنى ..

★ ★ ★

عاد الفارسى من السوق بعد أن باع الغطاء الذى فرغ العابد من
نسيجه وبعد أن اشترى من ثمنه صوفا جديدا ومطالب أخرى .
كان العابد فى الحقل يعمل فى السقى والعرق يتصبب منه .
عندما وضع الشاب ما اشتراه ذهب إليه وخطف الجبل منه وشرع
يسقى .

- ٦٢ -

وجلس العابد على صخرة غطاها الطحلب ونمت حولها أعشاب
ذات أزهار ، وأخذ يمسح بكميه وعلى فمه ابتسامة من يعرف سر
الهموم التي لونت وجه الشاب ، وقال :
- ماذا رأيت فى السوق يا فارسى ؟
- رأيت ناسا يا سيدى ..

ضحك :

- لابد أن يكونوا ناسا .. فالله واحد .
انتفض الشاب حتى سقط الحبل من يده وهوى الدلو إلى قاع
البئر . فمد الشاب كفيه إلى العابد كأعمى يتلمس الطريق وعلى
ملامح وجهه دلائل البكاء ، وقال هامسا :
- أبى .. ذلك ما كانوا يتنازعون فيه فى السوق . النصارى ..
اختلفوا فى أمر دينهم وعادوا مفتونين فيه .. وهناك ناس عادوا إلى
الأوثان لأن الأحبار والرهبان أقفلوا أبوابهم وأفواههم على الحقائق
وتركوا الناس يمجون .. أبى ..
فرد الشيخ فى يقين من يعرف أمرا :
- لا تجزع . انزل إلى قاع البئر وانتشل الدلو .. لكن .. انتظر
حتى أربط فى وسطك حبلًا ، فإذا أحسست ضيقا فهز الحبل
لأرفعك إلى أعلى ..

هتف الفارسی فی نفسه : « وإلا لماذا جئت إليك .. جئت لأهز الحبل فقد بلغ بى الضيق منتهاه ولكى ترفعنى إلى أعلى » .
ثم أخذ الفارس يسقى وأخذ العابد يتكلم :
— ولندع أمر الذين اختلفوا فى السوق لله فهو عما قريب سيتولى أمرهم . وسأحدثك عن بقية قصتى :
« احترفت الصيد بعد أبى مدة ولكننى رأيت أن السمك أرخص ما يصاد . كنت أحس أن فى قاع البحر لآلىء ، وكنت أسمع عن صيادى اللؤلؤ فى البحار الدافئة ، فتمنيت أن أصل إليها »
حتى دفعنى الحب إلى أن أقف على ميناء أزميز يوما ما وأسأل عن سفينة تقصد نحو هذه البحار . ونظر الرجل الذى أحدثه إلى قامتى الضميلة وقال لى :

— هل تريد أت تتعلم صيد اللؤلؤ ؟

فقبلت يده وصدره وكتفه ورأسه وهو يتسم لى ، وكان ضخيم الجسم متين البنيان كأنه جندى رومانى خلع لتوه عدة الحرب ، فإذا به يقهقه ويرفعنى بين ذراعيه مداعبا مثل دمية صغيرة ..
(الفارسى يستمتع والخضروات تنتعش بالماء وطيور مختلفة الأنواع على إحدى أشجار اللوز مائلة بأعناقها تنظر إلى بعيد) ..

— ٦٤ —

وعندما رفعتني أحسست أن السماء قريبة منى . ولما أنزلنى إلى الأرض أحسست بثقل غريب فى جسمى كأنه زاد قنطارا . وبعدئذ عاد يسألنى :

— هل لك أحد ستستأذنه ، أو لك أحد ستهرب منه ؟
فأكدت له أنى لا أحد لى فأستأذن منه ولا أحد لى سأهرب منه « ولكننى (وتدلّه صوته) لى أحد أبجث عنه ..
فضحك الرومانى وقد أنست به .

وأقلعت السفينة من الميناء والليل جاثم على الجزيرة وأنا صبى أحمل إلى البحارة والنوتية ما يشاءون وأنقل ما يشاءون من مكان لمكان . غير أننى أحسست بالخوف بعد ما غابت الأرض عن عيني عدة أيام . ولم أعد أرى فى النهار إلا نفس الحيتان وفى الليل أسماكاً تضيئ كلهب يسبح . وكنت فى كل ليلة أحس أن جسم أبى وأمى تحت السفينة . إنهما فى هذا البحر بلا مرأى . ليسا سمكا كما صور لى خيالى المحموم لأنجو من الشوق بل طينا ذاب فى الماء .. أحسست بهما كأنهما معى . وهكذا يمكن أن يحس المرء بالكائن الأعلى .

ثم سكت الشيخ ومد يده فى صمت بعد أن قام عن الصخرة وأمسك بالحبل ليسقى بدل الشاب فمانع ، لكنه شده منه بعنف عجب له الفارسى ، وأشار الشيخ إليه أن يجلس هو حيث كان يجلس على الصخرة بين الأعشاب .



حتى دفعني الحب إلى أن أقف على ميناء أزمير

يوما وأسأل عن سفينة تقصد هذه البحار

(الباحث عن الحقيقة)

- ٦٦ -

وأخذ العابد يسقى ويحكى .. ضحك قبل أن يبدأ :
 « وفى ضحا يوم أعلن الريان أن عاصفة فى طريقها إلينا ،
 وغطى السفينة هرج ومرج . وأخذت أنا أنظر إلى البحر .. وكنت
 قد علمت أن البحار خدعنى وأن السفينة ليست فى الطريق إلى
 مصايد اللؤلؤ وإنما هى فى طريقها إلى البندقية . لكن عندما توقعنا
 الغرق قلت فى نفسى « لا شك أن بحار الدنيا فى الغرق سواء » .
 وانقلبت السفينة ، وكنت أجيد العوم . والتقطت وأنا على
 سطح الماء أحد الصناديق الكبيرة وركبت عليه . لكننى فى طول
 هذه الفترة التى كنت فيها غريقا حيا كنت لا أذكر إلا شيئا
 واحدا ، هو وقفتى على الشاطئ ودعائى إليه أن يعيد « أبوى »
 الغريقين .

وقلت فى نفسى : « هأنذا فى الماء الذى ذابا فيه .. وسأدوب
 بدورى .. أليس هذا لقاء ؟ وربما التقينا فى بطن حوت . أليس
 ذلك خيرا من بطن دودة ؟ .. » .

ورأيت الله على ظهر كل موجة ومن خلال كل سحابة ، إلى
 أن يسر لنا من نجانا وحملتنا سفينة كانت فى نفس الاتجاه .

وسكت العابد ومسح عرقه بكميه :

- قم بنا لتغدى ونستريح ..

★ ★ ★

وفى المساء جلسا إلى المنسج ..

أخذ الفارسي يعمل وكأنه تعلم منذ شهور : « يد الله لا تكف عن العمل ، فلنكن صورة منه » . والشيخ يخلق بعينه الكليتين ويتسم ثم قال له :

— لكن السفينة التي نقلتنا كانت ذاهبة إلى أحد الموانئ الغربية ، ولما نزلنا هناك سمعت الناس يذكرون اسم روما .. ووقفت حائرا لا أدري ماذا أصنع وأنا شاب قد تجاوز العشرين ، وسألني أحدهم عن سبب رحلتي ؟ فلما قلت له : إنني كنت طامعا في أن أكون صيادا للؤلؤ قهقهه وصفق . وسلموني لحرس الميناء ذلك الذى رحلنى إلى مكان بعيد عن الميناء بعدة فراسخ واقعا على سفح جبل مليء بالرهبان . فاتخذونى خادما لهم .

كنت أجلس مخبئا على مقربة من سمرهم فرأيتنى أعشق ما يقولون . كانوا يتناولون فلسفة القدماء ويتناقشون فى التوراة والإنجيل كلما اجتمعوا لطعام أو حديث . وأحسست لقربى منهم بما هو نابع من ذاتى . أحسست أن كل الذين « شكوا » أو « رفضوا » « أو عددوا » لم يهتدوا . وأن « عقل الكون الطهور » لابد أن يكون واحدا ، وما دام « عقلا » فلا بد أن تكون الوجدانية من صفاته .

— ٦٨ —

ولما رأوني أحوم حول مجالسهم شكوا فى مدى معرفتى . فلما
سألونى أجبتهم . ولما ناقشونى ناقشتهم فتنانى أكبرهم وقبلنى وهو
يقول لى : « يا راهبا خارج الدير » . وقد تعلمت منه الكثير .

عندئذ توقف الفارسى عن العمل ونظر للشيخ قائلاً له :

— لقد سئمت فى أرض فارس من صراع إله النور وإله الظلام
فرحلت أبحث عن الحقيقة ، وأبكى عينى اليوم يا سيدى وأبى أنى
رأيت فى السوق رجلين من النصارى يتصارعان ، أحدهما يبيع
خبزاً والآخر يبيع نبيذاً . وقد ترك كل منهما بضاعته واعتدى على
الثانى . فمزق بائع النبيذ خبز صاحبه وأراق بائع الخبز نبيذ
صاحبه . فاصطبغ الخبز بالنبيذ كأنما أريق عليه دم ..

وعندئذ أطرق العابد . وساد صمت ، ثم سمع دق على الباب ..
دق متواصل ملح قلق . فقام الفارسى وفتح . كان يحمل معه
مصباحاً . وعندما وقع وجه الطارق على وجه الشاب تراجع
الطارق وهو يهمس :

— هل أنا مخطئ إلى هذا الحد ؟

وتلفت حوله . يريد أن يقول : ليس هناك صومعة أخرى ..

فسارع الفارسى قائلاً :

— لا .. إنه هنا .. وأنا ضيف عنده .. ادخل .

— ٦٩ —

كان رجلا في منتصف العمر ، كان عليه هيئة التجار ، وعلى
سحته الحزن والثورة ، ودخل إلى العابد فى حجرة المنسج
والفارسي ينير الطريق بالمصباح . فلما وصل إليه جلس متهاككا
وأخذ يتكلم وهو هائج :

— أفنتى يا سيدى فإنى سأزل . إنى حزين القلب والعقل معا .

رد العابد فى اطمئنان كأنما ليهون الأمر :

— معا ..؟؟ هذا عجيب ..

— معا يا أبى .. لقد جئت إليك من الموصل ، حيث هناك يشتهر

اسمك .

— مرحبا بك .. لكن كيف تبكى ؟

— ابنى .. مات فى مصر .. ذهب إلى هباك يحمل من

المنسوجات ليتجر فيه فقتل .

—لقى ربه ..

— إن هناك فتنة يا أبى تقوم حول عبادة العذراء .. نسينا حقيقة

ديننا . من هذا الذى سيضع الحد لهذا كله يا أبى؟؟

قال العابد فى همس :

— السماء .. (ثم أشار للفارسي) وهذا شباب آخر يضرب فى

أنحاء الأرض حائرا . يا بنى .. أنتما الاثنين . لن يدع الله عباده

- ٧٠ -

هكذا .. لقد أيقظ المسيح فى أتباعه الضمير الإنسانى : « ملكوت الله فيكم » . لكنهم فتنوا ، وها هى ذى يا بنى .. أنتما الاثنين تريان أن شريعة بنى إسرائيل قد فقدت قيمتها فى هذا الزمن .. بليت . ثم يا بنى أنتما الاثنين .. ها أنتما تريان أن قوانين روما الأرضية قد نخرها السوس كما نخر عظام هذه الدولة ، والمسيح يا بنى أنتما الاثنين .. لم يأت بشريعة أرضية . « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » .. لا تبك أيها (الموصلى) فهذه إرادة (الواحد) .. وأنتم فى هذه الأيام مفتونون .. والأخبار يعلمون أن الله لن يدعكم ولكنهم يكتمون الحق ، لا تبك أيها الموصلى ونخذ بيد الفارسى وتعالوا للعشاء ..

ثم أكلوا وناموا .. رقد الثلاثة على حشية من القش وطرحوا عليهم الغطاءين اللذين كانا واحدا ملفوفا .. وفى الصباح أحس الموصلى أن ابنه هناك بانتظاره فى دكانه الذى يبيع فيه . فقبل العابد والفارسى ورحل موقنا بأن نورا جديدا لابد أن يكتسح هذه الظلمات .

★ ★ ★

٤

وبعد بضعة شهور قال الفارسي للعابد :

— وداعا يا أبى ، لقد اشتريت بقرة وعدة رعوس من الضأن
وسأعيش وحدى فى كوخ على مقربة منك ، لأخلى مكانى لتلميذ
جديد . سأرعى وأحلب اللبن وأجزر الصوف وأغزله وأنسجه ..
علمتنى كيف أسعى إلى الله ، لكن .. إبنى .. آه ..
رد العابد فى ذبول :

— سأقول ما تريد أن تقول : إنك ستشعر بالحنين ولو أنك
ستكون قريبا منى (وتبسم) لا تحزن . فأعظم أنواع الحنين هو
ما يخلقه القرب . ومن ذلك حب الله ، آه .. ها أنت يا فارسي قد
تركت أهلك منذ سنين فكيف حال حنينك إلى من بعدت
عنهم ؟

وعندئذ أطرق الشاب . كان الحنين إليهم صدى يتراجع مثل
همهمة الهرايدة فى معابد النار لكن حنينه اليوم شديد الوقع ..

— ٧٢ —

نقرات على شغاف القلب في انتظار مصدر النور وأصل الحقيقة
وما لقاء هذا العابد سوى إرهاب لما يراد .

رد الفارسي وقد رفع رأسه وصوته :

— إننى يا أبى أشعر وكأننى والد لشاب مات . وأنا الوالد
والشباب فى وقت واحد . كبرت وخرج منى إنسان جديد بعد
ما مات فى "إنسان . كما تولد الخطوة من الخطوة فتحى الثانية
وتنتهى الأولى . والسير إلى الأمام يا أبى .. إلى منبع يشتاقل قلبى
لرشاشه . شربة واحدة منه تطفى الظلم إلى الأبد .

همهم العابد وكأنه يخاطب شخصا بعيدا :

— ستره ..

واستطرد الفارسي :

— ها نحن أولاء فى كل صقع ننتظر شيئا . وإن كانت الأم
تعرف معنى مناغة ابنها الرضيع وتستجيب ، فالله أحرى أن يعرف
مناغة قلوبنا ..

— صدقت ..

— وداعا يا أبى ..

وأخذه الشاب بين حضنه . وقبل جبينه ولحيته ، ثم بكى
وانصرف .

— ٧٣ —

ومنذ هذه الليلة وهو يستقل بحياته يرعى بالنهار ويغزل بالليل
وينسج ويبيع ويشترى ما يحتاج . ويتردد على العابد كل مساء
فيقوم بحاجاته قبل أن يعود إلى بيته ويستزيد من المعرفة . يحس يوما
بعد يوم — ولو أنه مقيم في عمورية — أنه يسافر . إلى أين ؟ ذلك
ما يحسه قلبه ولكنه لا يستطيع ترجمته .

وفي إحدى الليالي دخل الفارسي على الشيخ فألفاه في فراشه
والليل خيم والمصباح لم يوقد . فعجب الشاب لما حدث لكنه
عرف أن الرجل قد أتعبه السنون . أشعل النور وجلس تحت قدميه
على فراش القش .

جاءت من العابد ابتسامة وانية . وقال للفارسي :

— أما آن لك أن ترحل ؟

فرد في عجب :

— إلى أين يا أبى ؟

— إنك لم تصل بعد . لن أخاف عليك من أشواقك ، فإرها

نور . ستبيت في الكهوف وتقيد أطرافك وتبقى روحك طليقة
(وحملق فيه) لهذا خلقت يا فارسي .

تحسس الفارسي قدمي العابد ، وسأل متوسلا :

— ألقيت الخوف في قلبي ..

— ٧٤ —

— لا .. لا تخف فقد جاء الأوان وتناقلت الركبان ما عرفه
الأحبار وأنكروه .. هيه .. أيها الفارسي . إن نهايتي قد قربت .
— ماذا أقول يا أبى .. ليت نفسا ردية تفدى نفسا زكية .. إذن
فدتك نفسى .

تبسم العابد وقال :

— ستطفئ ظمأك فلا تخف يا فارسي .. عيناك تسألان إلى أين
ستذهب بعدى وإن استكبرت أمر موتى ، لكنى يا بنى لا أعرف
أحدا على مثل ما كنا عليه . آمرك أن تأتبه ولكن .. اسمع جيدا ..
قد أظلك زمان نبى يبعث بدين إبراهيم حنيفا يهاجر إلى أرض ذات
نخل بين حرتين ، فإن استطعت أن تذهب إليه فافعل .
كاد الفارسي يصرخ : « آه ماذا تقول يا أبى ؟ » .. وأطرق
حاملا ذقنه فوق كفيه وهو جالس على حشية القش عند أقدام
العابد . وعندئذ شعر بشيء جديد . شعر بأن معالم هذه الأرض
غريبة لا تطاق . ويلمسه من الحنين إلى الذى حدثه الشيخ عنه .
وأخذ يتصور النخل والحرتين . وتذكر توا ما قاله العابد ذات يوم
حين كلمه عن الحقيقة : « لم تجدها فى بريق الذهب ولكن ربما
ستجدها فوق رأس نخلة وأنت تحصد أو تحت أقدامها وأنت
تزرع .. » .

- ٧٥ -

ثم أخذ يقول فى نفسه : « من ذا الذى يدلنى على هذه الأرض ؟ لم تعد أرض اللوز والأعناب وطننا لروحي .. آه يا أبى .. ليتنى أستطيع حملك طوال الرحلة القادمة وأنت فوق رأسى لتهدىنى إلى هذه الأرض . لكن .. ما دامت خطواتى وراء أشواقى فإننى لن أضل » .

وتنهذ . وعندئذ سمع صوت الشيخ فجأة يقول له بقوة جديدة :
- يا فارسى ، خذ المصباح وقم معى فإننى أشعر أننى الآن أحسن حالا ، تعال إلى حجرة المنسج .

وجلسا هناك وأخذنا يغزلان معا . وعادت إلى الشيخ حيوية طارئة كذلك الصبحو الذى تفجؤنا به السماء بعد الغيوم . وأخذ يتحدث . وأمر الشاب أن يصنع له شرابا دافئا ووضع عليه بعض الأعشاب وأخذ يشرب . ثم قال للفارسى وهو يتنسم :

- كأنك غريب .. أليس كذلك ؟

فأطرق الشاب .. واستطرد العابد :

- أنا أعرف سرعة القلب حين يركض ، كحصان عربى . يركض إلى هناك (وأشار بعيدا) وهو هنا (وأشار إلى صدره) مخلوق غريب هذا القلب يا بنى .. فيه كل سر .. هو أبو الجوارح .. فيه العين والأذن والأكف والأقدام (وضحك) يرى ويسمع

— ٧٦ —

ويجری .. هیه .. أليس قلبك الآن فى ركض ؟ لا تخف یا فارسى .

ستلقى هذا النبى .. ستلقاه بإذن الله .

قال الفارسى فى سهوم وتبتل وخضوع :

— دعنى با أبى ، كفانى ما أحس الآن فلا تشعل نار شوقى .

رد الأب وكأنه لم يسمع شيئاً :

— له آيات لا تخفى .. فهل تحب أن تعرفها ؟ ثم همس إليه

وسكت . لكن .. بقيت على شفثيه ومضات نور .. كآيات

لا تخفى للحادث الأعظم .

همهم الفارسى :

— ماذا قلت يا أبى ؟ إن رأيته عرفته ؟ إن رأيته عرفته ؟. كيف

أعرف ما هو فوق طاقة البشر ؟

— آه .. (وهكذا تأوه العابد فى شبه احتجاج) لا .. لن يفتن

الناس فى أمره كما فتن النصارى .. بشر يوحى إليه بشر مكمل ..

سيعرفه قلبك يوم تلقاه یا فارسى ..

وعندئذ تلثم الفارسى بسؤال هم أن يلقيه لكنه ما لبث أن عدل

عنه . أحس الشيخ به فهتف يسأله :

— قل ولا تخف ..

— لست أريد شيئاً .

— اسألنى قبل أن تسأل عنى فلا تلقانى ..



وأمر الشاب أن يصنع له شرابا دافئا

— ٧٨ —

— أوجعت قلبي .. كنت أريد أن أقول لسيدى هل تمنى أن
تلقى هذا النبي ؟
وعندئذ استنار وجه الشيخ وترك المنسج واعتمد على ذراعه وهو
متكى على خشبة وقال له :

— لقد لقيته فعلا بإيماني مقدما بظهوره . وعبدت الله الذى
سيدعو إليه . لكن بقية أيامى وقواى لن تمهلنى حتى ألقاه .. أما
أنت يا فارسى — إن كنت موقنا أنى أسديت إليك شيئا — فاذا كرنى
عندما تتملى عينك طلعة أكمل إنسان يحلم برؤيتها طائفة من البشر
قبل ظهوره . وسيحلم برؤيتها طائفة أعظم تراه فى كل حق ونور .
وعندئذ أكب الفارسى على يدى الشيخ مقبلا دامعا ، غير أنه
ما لبث أن أخذ يده ليعتمد عليها وعاد به إلى غرفته حيث سينام
على حشية القش ، وأمره بأن ينصرف ويعود إليه فى الصباح .
وقبل مشرق الشمس كان الفارسى فى الطريق إلى العابد ،
ورذاذ من المطر يليل الأرض ، وعلى رأس الفارسى غطاء من
الصوف نسجه بنفسه وفى يده وعاء من الحليب .. من بقرته ..
حملة إلى السيد العابد .

كان الفارسى وهو فى الطريق يتأمل معالم المكان فلم يجد شيئا
يعرفه . خيل إليه أن كل معلم قد غير موضعه . فالكنييسة الصغيرة
القديمة لم تعد فوق التل كما عرفها أول يوم منذ سنين يوم جاء إلى

هنا . والكهف الكبير لم يعد هناك بل فى مكانه انبثقت أشجار .
وهذه الأكواخ كأنها نبتت فجأة على السفوح . وليس هناك مرعى
أنحضر . وكأن البقر والغنم ذئاب تبحث عن فرائس . « ما هذا ؟ »
هكذا سأل الفارسى نفسه « هذه الأرض ليست وطن القلب منذ
اليوم .. لقد أصبحت غريبا » .

وواصل السير : ورذاذ المطر يبلل غطاء إناء اللبن حتى إذا
ما قارب باب العابد رآه مفتوحا ملتصقا تماما بالجدار كأنه يقول
للناس : ادخلوا ..

ودخل . أولا إلى حجرة منامه ، فلما لم يجده فيها تفاءل .
وكانت هناك نار نحاية وعلى الجمر وعاء صغير تفوح منه رائحة
أعشاب غريبة تغلى مع الماء — والغطاء منكوش مما يدل على أن
صاحبهرمى به .

ونادى . لم يجبه صوت . فوضع وعاء الحليب على النار إلى
جنب وعاء الأعشاب ورجح أن يكون العابد فى المزرعة ما دام أنه
نادى فلم يرد عليه . فاحترق الدهليز فى نصف وعى ، ولكنه عندما
نفذ منه إلى الباب المؤدى إلى المزرعة رأى المطر يشتد . فنادى ، ثم
سار حثيثا ، وذهب إلى البئر فإذا الدلو مقلوبة . وكل شئ يدل
على التوقف . ونادى .. وتفقد المكان .. ثم ألقى نظرة على هذه
البقعة الخضراء الصغيرة التى حبا فيها قلبه حتى وصل إلى الله . ثم

نظر إلى السماء الرمادية التي تبشر بشيء .. أى شيء .. ثم هرع
مسرعا إلى الداخل .. مر بحجرة نومه فإذا بالبن يفور ويراق على
الجمر فرفعه ووضع على الأرض ثم رتب الفراش . لم يكن هذا
وقته لكنه كان قلقا مربوكا . ودلف إلى الدهليز الآخر الذى يؤدي
إلى حجرة المنسج ، وعند الباب رأى ما جعله يقف متجمدا ، رأى
الأب الذى أحبه جالسا إلى المنسج منكبا عليه جبهته على النسيج
وفى يده صوف وفمه مقفل بإصرار وعوده منطو فى طمأنينة وقد
فارق الحياة .

صرخ الفارسي :

— أبى .. مت وأنت تعبد .. مت وأنت تعمل .. مت وأنت
مؤمن بالنبي الجديد .. أبى مت أنت وليس دهقان فارس .. » .
ومال يقبله ويبلل وجهه بالدموع ، ثم حمله إلى فراشه .



وبعد هذا الحادث الروحي الفذ استطال الليل وشحب النهار فى
نظر الفارسي .. وكانت قدماه تغلبانه فى الذهاب إلى هناك . إلى
حيث كان يسكن العابد ، ثم ما لبث أن تراخى قليلا . ثم انقطع
تماما عندما ذهب إلى المكان فإذا به قد حول إلى معصرة للنبذ
وزحف الإهمال على المزرعة وانكسرت سوارى عرائش العنب
فانكبت على الأرض . وعندئذ أحس الفارسي أن هذا نداء له

بالرحيل إلى البقعة التى ترك فيها بقرته وغنمه حيث كان
يرعى ، وجلس على الأرض فى يمينه عصا يضرب بها حجرا أمامه
.. حركة لا إرادة فيها . كأنها تعبير عن الهموم .

سمع الفارسى غناء انتفض له . وذكره بحادث قديم . حادث
كان عارضا لكنه كان فى حقيقة أمره عميق الأثر . سمع حذاء
عربيا بصوت رخيم فكأنما بعث من خلال نبراته رفيق سفره الأول
سهيل العربى فضرب الحجر بعصاه . فانكسرت العصا .. نظر إلى
نصفها الذى سقط وألقى بسمعه إلى الغناء . حدثه قلبه أن شيئا
ما سيقع . لكن الركب لن يمر بجواره . فجرى هو حيث وقف عند
الطريق الواسع . وأخذ الغناء ينصب فى أذنيه ففاحت منه رائحة
الجزيرة . ونظر إلى قدميه الكبيرتين فى نعله الخشن فخيل إليه أنهما
قدما طفل يحن إلى ملعبه هناك : « آه .. أرض ذات نخل بين حرتين
.. آه » .

وسكت فجأة صوت الحادى يقول :

يا نخل تحت ظلك الحبيب

يا ليت لى فى الظل من نصيب

فديت من إذا رأيت طلعتة

رأيت بدر الليل يحكى صورته

— ٨٢ —

يا ليت لى فى الظل من نصيب

يا نخل تحت ظلك الحبيب

وسكت الغناء وبدا سواد القافلة ، ووقف الفارسى فى الطريق
وقد مد ذراعيه إلى جانبيه كل فى ناحية ليستوقف الراكب .
وهمهم المسافرون وخافوا . وسرت بينهم حركة استعداد كتلك
التي يأتيها الجنود بعد الإشارة الأولى . لكنهم ما لبثوا أن رأوا من
صباحة وجهه ونقاء نظرتهم ما جعلهم يؤمنون بطهارة قصده .
الشوق فى عينيه والظما على شفثيه والتضحية أقرب الأفعال
إلى قلبه :

— أيها الحادى .. لقد أثرت أشواقى .. قفوا بالله عليكم وثقوا
أننى عبد لكم .

فجاءته أصوات مختلطة :

— ماذا تريد أيها الرجل ؟

— إن لكم سحنة قوم أحبهم .

فجاءه صوت غليظ :

— ولكنك لست منهم .

فرد الفارسى بنبرة عاتبة :

— ظلمتنى .. أين وجهتكم بالله عليكم ؟

رد صاحب الصوت الأجلش وكان رجلا طويل اللحية يجرى
سواد شعراتها فى بياضها جنباً لجنب حتى اكتست لونا أزرق :
- وجهتنا جزيرة العرب ، فماذا تريد منا ؟

أمسك الفارسى بزمام ناقته وتثبت به فلو أن قوة الدنيا جذبتَه
من بين أصابعه لمات دون ذلك . ورفع الفارسى رأسه إلى الزجل
وقال بصوت سمعه الجميع :

- إننى أقيم هنا ، وليس هذا وطنى يا سادتى .. أنا من بلاد
فارس ، لكن وجهتى جزيرة العرب .. وأنا أملك أشياء تافهة
وكثيرة ، فهذه الأغنام وتلك البقر لى فخذوا كل هذا . سأسوقها
أمامكم واقتسموها واتركونى فى الجزيرة .. فى أى مكان عامر
وبعد ذلك جزاؤكم على الله .

وما كاد الفارسى ينتهى من كلامه حتى سمع ذا اللحية يأمر بأن
تناخ الجمال لتستريح حتى يعود إليهم هذا الرجل . بما وعدهم به .
وبعد أن أولاهم ظهره ورأوا صلابة أجداده وعظمة بنائه خافوا أن
يكون له أتباع من شاكلته ، فما لبثوا أن شدوا رحالهم وساروا .
وكان الفارسى قد حمل أمتعته التى لا تزيد على الغطاء والرداء
وساق أمامه ماشيته متجها إلى حيث استراح الركب لكنه وجد
المكان خالياً إلا من آثار الرجال والجمال . فتلفت فى الأفق وقلبه
يئسى . فما لبث أن رأى ظلالهم على بعد فأخذ يضرب ماشيته

بقسوة لم يعهدها فى نفسه سائقا نحو الركب وهو يصيح بهم أن
انتظروا وكانوا يتلفتون . فلما رأوا صدق قوله انتظروه على الطريق
حتى وصل إليهم . فأردفه واحد منهم خلفه ثم استأنف الركب
مسيره .

وعند أقرب بلد باعوا أملاك الفارسي واقتسموا ثمنها ، وأعطوه
نصيب واحد . فشعر وهو يأخذ هذه الدراهم ببهجة من وهبه الله
العافية ، فقد كان موقنا بأن الطريق لن يطول وأنهم سيحسنون إليه
مثلما أحسن .

وكان السفر فى أوله ممتعا ، ساعة كانت القافلة تسير ومعها مال
الفارسي . وكان الحادى لا يكف عن الغناء وبين الجماعة هرج
ومرج يوحى بالسعادة . وبعد أن قسموا الغنائم وأخذوا ينفقون
منها فى كل بلد يمرون به ونقد كل ما أخذوا بدأ الموقف يتغير .
وأحس الفارسي أنه غير مرغوب فيه وأنه قد سقط فى فخ لكنه لجأ
إلى الصبر والحيلة .

وكان أول ما لقيه أن قال له الرجل الذى أردفه وراءه :
- إن راحلتى قد تعبت . إنك أثقل من عشرة رجال . أعطنى
سيفك هذا وإلا فترجل .. اجر وراءنا إن شئت ..
شعر الفارسي بأن كلمته عن السيف ليست فى حقيقة أمرها
سوى سيف أغمد فى قلبه . ولم يكن فى سيفه جوهر فقد كان

— ٨٥ —

السفر الطويل سببا فى أنه باعه قطعة قطعة وأصبح مقبضه يحمل آثار
الجواهر . لكنه كان فى حقيقة أمره — كسلاح — يعادل روح
الفارسى نفسها فرد على صاحبه :

— دعك من السيف .. لكن أنا مستعد أن أعطيك إحدى بردتى
هاتين وتكفينى واحدة .

رد رئيس الركب بصوته الغليظ قائلا :

— أنت رجل مغرور . أما يكفى أننا احتملناك كل هذه المدة .
من أرض الروم إلى الشام وها نحن أولاء قدمنا وادى القرى ؟
قال الفارسى فى نفسه : « ليتنى أستطيع أن أبارزك » ثم هتف
به : « أهذا هو وادى القرى .. إنى أرى فيه نخلا .. إنه واد
مبارك .. » .

رد رئيس الركب فى تهكم خفى :

— لقد أصبت عين الحقيقة .. لكن .. اعلم أننا قادمون بعد قليل
على قبيلة من اليهود تقيم فى هذا الوادى وأبى يرحمه الله كان قد
أصهر فيهم . أى أنهم أحوالى .

وعندئذ ترامت إلى أذن الشاب ضحكات منتصرة من مؤخرة
الركب أحس بعدها أن أشياء ضده قد دبرت بليل ، لكنه تحسس
سيفه . فنظر إليه اليهودى وقال له :

— ٨٦ —

- إنك لكى تصل إلى هنا فقد كان لابد أن تدفع الثمن يا بنى ..
لكن نسينا أن نسألك ما دينك ؟
- أعبد الله ..
ضحك الرجل ضحكة تقع على الأذن مثل الصفعة :
- وأنا أعبد الله .. أنا أسألك ما دينك ؟
- لو كنت تعبد الله حقا ما فعلت بى هذا أنت وصحبك . إن
الذى يعبد الله حقا يحبه أو يخافه أو يرجوه فيمن خلق . فهل أنت
تحب أو تخاف أو ترجو أيها السيد ؟ ماذا تريد أن أدفع لك ؟ لم يبق
معى شىء يباع سوى سيفى وثيائى وقد كنت طوال السفر أخدم
الركب رجالا وجمالا ومستعدا للدفاع عن مصيره .
- أوه .. أنت متحذلق يا بنى . أما سألتك ما دينك ؟
- دين إبراهيم الحنيف ..
عم صمت .. وسادت همهمة : « آه .. آه آه .. من ؟؟ » .
وقال الفارسى :
- قل لى يا عماه .. بماذا تخيفنى ؟
حملق فيه :
- ألسنت خائفا يا فارسى ؟؟

— ٨٧ —

— لقد تحررت من كل ما يورث الخوف يا رجل .. وها أنت
ذا ترى أننى مستعد أن أتخلى عن ردائى وشملتى أما سيفى فلا ..
ثم .. بقيت (النفس) .. وليس لها إلا مالك واحد هل تعرفه ؟
رد قائلا :

— نعم أعرفه .. وهو أنا ..

حملق الشاب بعينين مذهولتين وهم أن مجرد سيفه فلمعت حوله
سيوف تبلغ المائة ، فرجع لكنه أيقن أن شيئا ما سيحدث . وقال
الرجل وهو يزبد :

— أتجرد سيفك فى وجوهنا أيها الجبان .. نحن قادرون أن
نترك هنا وحدك ونصرف لتكون فريسة للسباع قبل مدخل
الليل . لكن ديننا يمنعنا من ذلك .

— وهل يبيح لك دينك أن تنقض العهد وتأخذ من مسافر كل
شئ حتى ثيابه ؟

— لا تخف . سندع لك الثياب ولكننى الآن أترك الخيار لك ،
فإما أن تنزل من على الراحلة لتلقى المصير المعروف هنا
وحده ، وإما أن تعطينا ثمن (نفسك) .. ادفع لنفسك الفدية من
نفسك لتقسمها بيننا . هل تفهم ؟

همس وكأنه فى حلم :

— فدية .. وهل أنا أسير أيها الرجل ؟

— ٨٨ —

— لا .. بل أنت رقيق . سنيبعك يا فارسی فی هذه القبيلة ■
وهأتذا فی أرض أعجبك فخیلها كما رأينا . فهل تستطيع أن تفعل
شيئا ؟

انبعث من جديد صوت الحادی حزينا وكأنه هو وحده الذى لم
يشارك فی هذا الإثم :

يا نخل تحت ظلك الحبيب

يا ليت لى فی الظل من نصيب

.....

.....

وكان الفارسی يقول فی نفسه وهو متمالك كل حواسه
ومعنوياته : « وماذا يضير ما دمت فی الطريق إليه . إن المملوك
لا يملك مرتين فی وقت واحد ونفسى ملك الله . فهى فی طلاقة
الأفق وحرية النسيم .. وماذا يفعلون بجسم رقيق ؟ لست أرى فی
هذا تناقضا يا ربى .. آه أين أنت يا عابد (عمورية) لتقول لى
رأيك ؟ لست أرى تناقضا فی أن أخدم عبدا وأعبد إلهها ما دمت
يا ربى قد كتبت على أن « أبكى فی الطريق إليك » .

كان الصمت مخيما على المجموع ، وقال ذو اللحية مستأنفا

حديثه :

— ما رأيك يا فارسی ؟

— ٨٩ —

- الرقيق لا رأى له .
- أصبت الحقيقة .. لكن لم تقل لى كيف تعبد الله على ملة إبراهيم حنيفا .
- لست من المشركين .
- ولما لم تكن يهوديا ولا نصرانيا ؟
- أحباركم يعلمون معنى ما أقول فإن كنت تعرف أحدهم فاسأله .
- فتى متحلق .. ها نحن أولاء قد وصلنا ..
- ثم رفع ذو اللحية عقيرته وأخذ ينادى :
- يا أبا يعقوب .. يا أم يعقوب .. يا يعقوب الغالى .. ها نحن أولاء قد عدنا .
- وارتفع نباح الكلاب عندما نادى الأسماء الثلاثة ، وسعت إليه امرأة هى أم يعقوب ورحبت به ، عرف الفارسى عندما رأى أنفها أنها يهودية حقا .
- وأناخت القافلة ، واجتمع الرجال حول المرأة ووقف الفارسى بين الجميع وقد فرعهم بطوله نامى الشعر واللحية فى غير نظام . أشعث أغبر . فى عينيه معرفة ومعركة ويقين . وأخذته عين المرأة فأحست بالخوف . وسألت ذا اللحية عمن يكون هذا الشاب ؟ فأجابها بأنه رقيق معروض للبيع . وأنه قد اختار زوجها أبا يعقوب ليكون شاريا له . وفى فرح وخوف هرولت راجعة ثم عادت به ..

بزوجها قمىء مدبب الرأس من أعلى . كأن رأسه بيضة مقلوبة .
وكان الفارسى ينظر إلى الصحراء والجبال من حوله فلا يعرف شيئاً
إلا أنها أرض الله .. وجعل يرقب المساومة بين اليهوديين على الثمن
وهو يتسم إذ هو موقن بأنهم يبيعون ما لا يملكون ، وأن هذه
النفوس التى يتساومون فيها سيستردها صاحبها بلا ريب ..
سيستردها الله ..

ولم يلبثوا طويلاً حتى تمت الصفقة وتركوه وانصرفوا .
وعندما كان الفارسى يتبع أباً يعقوب إلى داره كان غناء الحادى
يأتى من الجنوب وانيا متهافتا أكثر حزناً واكتئاباً ..
يا نخل تحت ظلك الحبيب
يا ليت لى فى القرب من نصيب

.....

.....

عدة منازل صغيرة متفرقة قائمة على السفح لجماعة من سيدهم
أبو يعقوب ، يشربون ويسقون من بئر شحيحة الماء لكن قوام
معيشتهم فى الحقيقة هى الرحلات إلى الهند أو اليمن لجلب البضائع
أو السيوف والاتجار فيها .

ولما اشترى أبو يعقوب هذا الرجل الفارسى وانصرفت القافلة بدأ
يشعر بالندم . وأحس — ولسبب لا يمكن إدراك سره — إنه إنما
اشترى لنفسه سيده . فلم تكن نظرات هذا الرقيق الذى أضناه
السفر والسهر والغدر والجوع كسيرة ولا ذليلة . بل كان يرى —
كأنه أحد الأبحار — فى أعماق عينيه السوداوين القاسيتين أسراراً
روتها التوراة عن تبدل الدنيا وإشراق النور الجديد .



بل كان يرى فى أعماق عينيه السوداوين الفارسييتين أسراراً
روتها التوراة عن تبدل الدنيا وإشراق النور الجديد

— ٩٢ —

وأراه مكانه . حيث يجب أن يقيم » بيت مستقل . إن وقف
كان السقف يلمس رأسه وإن تمدد كان الجدار يلمس قدميه »
وعندئذ قال الفارسي : ماذا يريد رقيق أكثر من ذلك (وتبسم)
واختلى أبو يعقوب بزوجته في الليل وبثها إحساسه ..

— ماذا ترين في هذا الرجل يا امرأة ؟

— ثمنه بخس . لو شئت بعناه بضعف ما اشتريناه به .

فلكهما في صدرها فتاوهت وقال :

— ليس هذا قصدي . ماذا ترين في روحه لا بنائه .. ماذا يلوح

في عينيه ؟

— أخاف منهما ؟

— ذلك هو شعوري . سأطفئ فيهما الشعلة منذ غد فلا نعود

نخاف ..

همست خائفة : .

— وماذا ستعمل ؟

— ٩٣ —

— سأكلفه أشد عمل وأطعمه أقل زاد وأجنى من وراء كل هذا
ربما كثيرا ..

— أخاف عليك . ولكن افعل ما بدا لك .
وعند الصباح وقف أبو يعقوب عند البئر وصار يصرخ مناديا
قومه والفرسى واقف إلى جواره .
فلما التفوا حوله راعهم منظر الرجل « ولما علموا أنه رقيق أبي
يعقوب هناؤه وباركوه ثم سألوه فيم جمعنا ؟ فقال لهم :
— هذه البئر لا يكاد ماؤها يقوم بحاجتنا من زرع وسقى ،
وكثيرا ما يغيض ماؤها ، وقد عزمت بواسطة هذا الشاب أن أعيد
حفرها وأن أبني جوانبها بالحجارة ، وهذا يستلزم نفقات طائلة
فهلا اتفقتم معى على أن أقوم بها وحدى نظير أن يدفع كل منكم
ألف درهم ؟

وتجادلوا وتطاحنوا واختلفوا ثم اتفقوا . ومنذ هذه اللحظة عرف
الرقيق عمله اليومى : وبعد قليل قال لليهودى :
— يا أبا يعقوب ..

— قل يا مولاي .. فأنت رقيقى ..
قال الفارسى بهدوء لا يقاوم .. هدوء كأنه ضجيج العواطف .
— إن لى سيفا دفنته فى مكان أعرفه . أستطيع أن أقاتل به مائة
رجل وأنا وحيد وأموت دون ذلك سعيدا يا أبا يعقوب . ولن أقول

لك من كان أبى ، وماذا كان يملك فلم تعد هذه الأشياء مناط فخر
 فى ضميرى ، ولكنى أقول لك يا أبا يعقوب إن لى مولى واحدا
 وهو الذى من أجله بخلت بنفسى أن أريق دمها بين رجل مثل
 صاحبك هذا الذى باعنى لك ، فهو قد باعنى وستبيعنى أنت فى
 يوم ما . وأنا أحتمل كل هذا بصبر سعيد لأننى بكل ذلك أشعر
 أنى فى الطريق إلى من أرجو لقاءه . إن لك من يدى هاتين عملا
 كثيرا ولك من ضميرى كل وفاء .. لك منى عهد لا أخونه لأن
 مثلنا لا يخونون العهود ، فأنا رقيق طليق يا أبا يعقوب .

دُعر اليهودى ونادى أم يعقوب وانتحى بها وقص عليها
 ما حدث فلکتمته فى صدره بدورها وحذرتة من هذا الشاب
 قائلة له :

- إنه مثل عاصفة رعديّة .. اختبئ واتركها تروى الأرض
 ولا تخرج إليها حتى لا يصعقك برقها .

ومنذ هذه اللحظة والفارسى يحمل فأسا ويصعد الجبل لكى
 يكسر حجارة يبنى بها جوانب البئر . وعندما ضرب بذراعيه
 القويتين رأس الصخرة تطاير الشرر منها . فتبسم . وأحس بسعادة
 لا يدرك مغزاها . كأنما أشعلت الفأس نورا كشف له معالم لم يرها
 من قبل .. على حوافيها الجنة . وبدأ يعمل حتى إذا ما فرغ بعد
 شهور أخذ يرمى بالحجارة من فوق الجبل ثم نقلها إلى البئر . وأخذ

يحفر ويبنى ويساعده فى ذلك بعض الغلمان وكانوا رقيقا ليهودى آخر .

وجنى الحى من ذلك خيرات غنوا لها وسهروا ورقصوا وزاد مال أبى يعقوب بعمل رقيقه الجديد .

لكن حدث بعد عام واحد من إقامة الفارسى بين هذا الحى من اليهود أن عزم أبو يعقوب على السفر إلى الهند ، لصفقة تجارية . فيها لؤلؤ وسيوف وتوابل . فسهر يفكر ، إنه إن استصحب معه رقيقه هذا فإنه لن يأمن ما يحدث فى الطريق فربما فر أو ربما غدر به ، إن عينيه القويتين تربطان عدوه كأنما هو مكبل بالأغلال . ثم قال اليهودى فى نفسه : وإن تركته فالله يعلم ماذا سيحدث فى غيابى .. ولكن لماذا لا أبيع له بعض أهل الحى ؟

وفى المساء التالى سعى هو بنفسه إلى أغنى رجل فيهم ، فلما دخل عليه وأخبره خبر سفره وأنه ينوى أن يبيع هذا الرجل الرقيق وأنه اختاره هو ليكون شاريا له . تقلب اليهودى الآخر فى جلسته وقال له بعد أن قبض على كف بكف :

— هل تريد الحقيقة يا أبا يعقوب ؟. إن كنت تنشدها فمن حقلك أن تبيعنى أنا رقيقا له .. وليس العكس .. ليس مثل هذه الروح تستعبد . وليس يتغير جوهر المسك إن سميناه طينا . يا أبا يعقوب إنك فى قرارة نفسك تحس أنه سيذك .. لماذا تطرق ؟.

— ٩٦ —

لماذا لا ترد ؟ .. حمل الأحجار وحفر وبنى وسقى بقوة تمدها
قوة لا تدرك .. أنت تخاف منه ولو عرضت بيعه على أهل الحى
شركة لخافوا . هذا الرجل الصامت الذى يتطلع إلى السماء كلما
وضع الفأس وكف عن العمل فى انتظار شىء .. فلا تسافر يا أبا
يعقوب حتى تتخلص منه . فهو سيدك وليس رقيقك وإن شئت
فاسأل ابنك عن إحساساته نحوه .

قال اليهودى :

— أنا مصدق كل ما تقول . لكنى لن أسافر حتى أقضى فيه
برأى ..

ولم تمض أيام حتى مرت إحدى القوافل .. وهللوا وفرحوا
عندما رأوا الماء ..

ونزل رجل من يهود بنى قريظة يسأل عن أبى يعقوب ، فلما
راه أبو يعقوب عانقه وظل يقبله فى كل موضع من وجهه لأنه رأى
فيه الخلاص فهو يعرف أنه يملك أرضا ونخلا وغنما وإبلا وأنه سيد
فى بنى قريظة .. ؟

واختلى الرجلان ..

— أهلا أبا كعب .. وكيف حال شعبنا هناك ؟

— أهلا أبا يعقوب .. وكيف حال شعبنا هنا ؟

— ٩٧ —

وجلسا يأكلان . وأخذ أبو كعب يقص على صاحبه قصة الرحلة وأن هذه آخر الرحلات فى هذا العام . وبينما هما يتحدثان إذ سمعا صوتا فخما عزيزا ينادى صاحب الدار :

— يا أبا يعقوب .. سأصنع لك منسجا كالذى رأيته فى بلاد الروم وأنسج لك صوف غنمك فتزج منه الكثير ..
تلفت الضيف مذهولا وسأل :

— من هذا الرجل ؟

غمزوه من كل جانب ثم صرفوا الفارسي لأمر ما . ثم قالوا إنه رقيق اشتريناه من إحدى القوافل . عض الضيف شفته ثم سبأته وقال لصاحب الدار :

— ما رأيك مثل هذا .. تبيعنى إياه ؟

تدلل أبو يعقوب وتأبى .. وضحكت أم يعقوب كأنها تستغرب الطلب ، لكن ما لبثوا أن عرجوا على الأمر أثناء الحديث ، وقبل رحيل القافلة كان أبو يعقوب قد قبض ثمنا لعبده خمسة آلاف من الدراهم .

★ ★ ★

نظر الفارسي إلى أهل الحى الذين التفوا حوله يسألونه وهو يمتطى ظهر ناقة : إلى أين الرحيل — نظر إليهم نظرة دامعة ليست على الأرض التى تركها ولكن حنينا إلى الأرض التى هو ذاهب إليها . وكانت البئر آخر ما وقعت عليه عيناه .

(الباحث عن الحقيقة)

— ٩٨ —

وبدأت القافلة فى المسير واستتب لها الطريق وإذا بأحد الحداة
يردد ما رده الأول :

يا نخل تحت ظلك الحبيب
يا ليت لى فى الظل من نصيب

.....

.....

ابتلت لحة الفارسى بدمعة ، ومرجحته الناقة وهو ينظر إلى
السماء . كان نورها شديد الرونق بالغ العمق . كان أكثر من نور
سماوى ، كان نورا وعطرا ومتعة روح . وشىء من دموع الرجل
يصل إلى فمه فيحس طعم الدمع فكأنما شرب شيئا نادرا وقال فى
نفسه :

« يد تسلمنى إلى يد حتى أقبل يديك .. هذا يقينى .. أيها النبى
الذى آمن به شيخ عمورية .. هل أنا فى الطريق إليك ؟. وادى
القرى كأنه يحمل عطرك .. » .

ثم رفع صوته :

— أيها الحادى لماذا لا تغنى ؟.. الحبيب تحت النخل .. أيها
الحادى قلها من جديد ..

★ ★ ★

٥

هتف دون أن يشعر والقافلة تدخل المدينة والنخل يهتز بريح لينة
وعليه بقية مطر والأرض ذات الأحجار السوداء حولها تلمع به .
هتف : « هذه والله أرضه وإنى ملاقيه هنا .. » .

ولم يكن الفارسي يدري أن صوته قد ارتفع حتى سمعه أبو
كعب فمال إليه يعنفه وسأل :

— عمن تتكلم ؟

قال وكأنه لم يخرج من نطاق فكرته :

— عن رجل أحلم بلقائه .

— صديق ؟

— ليتنى أسمو إلى هذه المنزلة . إننى واحد من عدد لا يحصى

يحملون نفس الحلم .

— لست فاهما قصدك .. هل قابلته وأنت مسافر ثم افترق بكما

الطريق ؟. آن لك أن تستريح يا فارسي ..

— سمع الله منك ..

- ١٠٠ -

- نحن قوم مجتهدون . نحن أهل زرع وحرث نقيم فلا نبرح ..
هكذا بنو قريظة - وهم قومي - وهذا دأبهم ولذلك آن لك أن
تقيم .

★ ★ ★

وأقام .. ينام فى بناية واسعة منعزلة عن الحى تكدست فيها
الحبال وأدوات إصلاح النخيل ، وفى أحد أركانها بقية ثمر فاسد .
فاحت رائحته فملأت الهواء .

كان متعبا من العمل . وتمدد على فراش من السعف وعليه غطاء
من الصوف خشن جدا وسراج شحيح النور يضئ المكان على
قدر طاقته . والليل شديد البرد . وأخذ يفكر . لم يدر لماذا عادت
به الأفكار إلى أول الطريق ؟ وتحسس الفراش وتذكر فراشه فى
فارس ، وتلك المخاطر التى تعرض لها والطاقة الروحية التى ألقى بها
شيخ عمورية ثم .. تذكر بما يشبه الرفق أباه وأمه وأخته بوران .

ولمع فى المكان منجل تحت النور الواهى ، واقتحمت المنظر
بجملته لفة من الحبال المكومة بلا نظام .. وجرى أحد الجرذان نحو
السقف .. وعينا الرجل ترقبان كل شئ وفى قلبه حنين ..

وسأل نفسه : « هل يتمنى أن يرى أحدا من أهله ؟ » ولم

يجد جوابا ، كأنما نادى فى مكان لا شىء فيه يردد حتى الصدى .
وأخذ يستعيد تفاصيل رحلته وهذا اليهودى الذى باعه لآخر ..
وملامح شخصية السيد الجديد .. أبو كعب هذا .. إنه وقومه الذين
يسكن الآن بين ظهرائهم منذ بضعة شهور يمتازون بالجن ، ليسوا
أهل حرب ، همهم أن يزرعوا ويحصدوا ويبيعوا ويكنزوا . وأحس
الفارسى أن أبا كعب رجل لين العريكة تمكن الإقامة عنده إلى أن
يقضى الله أمرا كان مفعولا .

ونظر الفارسى إلى سيفه .. فأحس بشوق إليه . كان معلقا على
مقربة بين كومة أدوات الزراعة فنهض وأتى به . ولذ له أن يجلوه
فأخذ يفعل . وتلأل السيف كأنه يحدثه عن ليلة حرر يديه ورجليه
من حبال الكتان التى أوثقه بها أبوه الوثنى . فخیل للفارسى أن
السيف قد حطم وثنا ، عندئذ أدناه من أنفه وشم رائحته . فاحت
رائحة الصلب المعروفة وملأت نحاشيمه ، فسأل نفسه : ماذا
سيكون مصير هذا السيف ؟ .. إنه وقد خلا الآن من الجواهر قابل
لأن يحلى بجواهر جديدة يعلم الله ما نوعها ..

وقام فعلقه فتدلى نحو الحبال ، ورجع إلى مرقدته وتمدد . ونظر
إلى السقف وتنهّد ، وقال فى نفسه : « إلى متى يا رب يطول
الانتظار .. أنا لست وثنيا ولست الآن نصرانيا .. وهأنذا فى أرض

- ١٠٢ -

اليهود ولست يهوديا كما تعلم . كنت مع عابد أحبته فيك
وأحببتك فيه ارتفع بمعرفته لك حدا كدت أراه فيه غير تابع لنبي
لكنه سبح في نورك . وشيخ عمورية الذى مات يا ربى هو المسئول
أمامك عما آلت إليه . وأنا لست فريسة للشك . فأنا أرى في
عذاب كل لحظة مرت بى ورقة خضراء تفتتح على شجرة الحكمة
.. حكمتك التى تخفى على الناس يا ربى . وأنا الآن فوق فراش من
الخصوص وتحت غطاء من الصوف . وليس يهمنى غطائي ولا فراشى
بقدر ما يهمنى ما تبسطه لى أنت وما تسبله على .. فكل قطرة دم
وكل شهقة نفس ملكك .. وأشواقى تقودنى وخطواتى تتبعها وأنا
بانتظار النور » .

★ ★ ★

قال أبو كعب للفارسي بعد عامين من إقامته :
- أنت رجل قوى ، لكنك تبخل بقوتك على مولاك .
فلم يرد عليه ولكنه أشاح عنه بوجهه ونظر إلى السماء على حين
استطرد اليهودى :

- أنت تذكر يا فارسي يوم كنا فى وادى القرى عند أبى
يعقوب .. يوم دخلت عليه فى آخر أيامك عنده وقلت : إنك تود
أن تعمل له منسجا وتنسج عليه صوف أغنامه . فلماذا لا تفعل هذا
عندنا ؟

— ١٠٣ —

— لا بأس يا أبا كعب . سأفعل .

ولم تكن هذه الرغبة إلا استجابة لإلحاح فى استرجاع ذكريات
خلت له فى عمورية كأنما كانت مع أمه وأبيه .. وأحس الرجل أنه
محتاج لمثل هذا كثيرا .. لأن المنطقة يغطيها الجذب بمعانيه كلها .
فلياليه التى يقضيها مؤرقا كمسافر يبيت فى انتظار دليل — من
الممكن أن يقطعها .. وشعر أن هذه البقعة من الأرض ستكون —
بحكم معرفة الله لحاجاتها — مهبط وحى ووطن نبى . وستكون
هذه الرمال التى تنبسط حتى تلمس صفرتها زرقة السماء محجا لكل
الأمم .

وبدأ أهل الحى من بنى قريظة يتحدثون عن منسج أبى كعب
وعن العمل الذى يقوم به له رقيقه الفارسى . وبدأ الرجل يسهر
وأخذ يحاكى فى عمله ما يفعله العرب فى نسج الخوص وما يفعله
الفرس فى نسج المطارف .. يد تعمل وعقل يفكر . والزمن يجرى
فى تشابه . غير أن الفارسى كان يرى كل يوم قنطرة لليوم الذى
بعده . يعبرها فى جهور حتى يأتى اليوم الموعود .

والعمر يجرى .. وقف الفارسى فى مطلع الشهر على تل يهيب
بالغنم أن تعود إلى حظائرها فرأى هلالا مولودا فتبسم وأخذ يحسب
عمره . إنه هنا فى أرض يثرب منذ ثلاثة أعوام أو أكثر .. وها هو
ذا يدلف نحو الثالثة والثلاثين .. وها هو ذا يكاد ينسى تاريخ ذاته

— ١٠٤ —

.. أهو حقيقة ذلك الطفل الذى ولد فى فراش الخز والديساج فى أرض فارس . وفرح بمقدمه الدهقان وأقيمت لميلاده الصّوات فى بيت النار فى القرية ؟

وهز رأسه وهو ينظر إلى الهلال . وقطعان أغنام بنى قريظة تنحسر وتتجمع فى طريقها إلى حظائرها .. وناقة شديدة الحنين ترجع بصوت كأنه نداء حبيب . وهز رأسه .. : « فى كل عام يدفن الرجل منا ذاته فى ذاته . يدفن الأضعف لينبعث منه الأقوى أو يدفن الأقوى لينبعث منه الأضعف .. وليس هناك ما يربط الأول بالثانى سوى للتذكر .. نعم . صدقت يا شيخ عمورية .. » .

وسلم عليه فى الطريق أحد الرعاة . أحس وهو يشد على كفه أن رابطة ما تربط بينهما .. من تلك العلاقات التى ينشرها الله بين البشر فيجعل المغترين يحسون بالتأخى . وكان قصير القامة ذكى القلب سريع الحديث . فى عينيه قلق وجمال يتناسبان مع صغر سنه ، وقال للفارسى وهما فى الطريق :

— أريد أن أتعلم منك يا عمى ..

رد الفارسى بتواضع :

— وماذا عندى لأعلمه لمثلك ؟

— لقد تحدث الناس عن أعطية الصوف التى تصنعها

يداك .



أهو حقيقة ذلك الطفل الذى ولد فى
فراش الخنز والديياج فى أرض فارس ؟

- ١٠٦ -

— وما اسمك أيها الشاب ؟

— اسمي حسان ، أنا سمي شاعر المدينة حسان بن ثابت .. هل

سمعته يا عماه ؟ .

— ربما .. لا .

فتأوه الشاب . وحملت آهته مدى لذة الروح :

— إنه يقول شعرا في النبي الجديد ..

هتف الفارسي واحتضن الشاب :

— ماذا تقول ؟ النبي الجديد ؟ ..

ثم هتف في سره : « آه يا شيخ عمورية ! ليتك معي وحملتك

لألقاه . إنني أخاف أن أموت على منسجى قبل لقياه مثلما مت

على منسجك فالعمر منحة .. » . ثم رفع صوته قائلا للشاب :

— زدني حديثا عنه .

— أتركني فقد بعدت عنا الغنم ، وسأعود إليك الليلة لأتعلم

وأحدث .

★ ★ ★

— ١٠٧ —

والسكينة تملأ المكان والقلب ، سمع الفارسي طريقة على بابه ،
ورائحة الحبال والليل والتمر والصوف تفوح في المكان . ودخل
الشاب بادی السعادة .. واحتضنه الفارسي كأنه ابن له لقيه بعد
فراقه . ولأول مرة منذ رحيله عن عمورية أحس بأواصر القربى .
وجلس هو وحسان إلى المنسج . في يدهما الخيوط وفي قلبهما
الأمل . وقال الشاب دون مقدمات :

— تركتهم يتجمعون هناك . الأوس والخزرج وقد سماهم النبي
بالأنصار .. التقوا به عدة مرات في (العقبة) وأسلموا وعلمهم من
دينه ما أسعدهم . ولم يعد بينهم حرب يا عمى .. وابن ثابت في
الطريق إليهم ، ليقول أشعاره في الرسول الذي لا يزال في
مكة ..

— حدثني عن الذين تبعوه ..

ضحك الشاب ضحكة من يستكثر على الصغير أن يخبر الكبير
بشيء أو يعلمه إياه :

— أما رأيت ذات يوم جبلا تغطيه الشمس بأشعتها .. هل تفرق
الشمس بين السفح والقمة ؟ إنها لا تفرق .. هذا هو دينه
الجدید .

ثم أخذ يتلفت في أنحاء المكان الذي يغطيه نور خافت حتى
وقعت عيناه على شيء ما فوثب الشاب وقام وجاء به :

— ١٠٨ —

— الناس فى دينه سواسية مثل أسنان المشط .. لم يبق من لا يتبعه
إلا من يخافون على عرش أو سلطان لا يستظل بظل الله . مثل ابن
أبى بن سلول .

ثم أمسكا بالصوف وجعلا يعملان ليلة فى أرض العرب أعادت
إلى الذهن ما كان هناك فى أرض الروم . ولكن الشاب كان متدفق
الحديث . كان يحس بفرحة من ملك شيئا عظيما يريد فى عظمته
أن يحدث الناس عنه . كان قد ملأ جيبه تمرا وأخذ يأكل ويتكلم
والفارسي منصت كأنه فى حلم :

— آه يا عماه .. لقد حفظت كثيرا من القرآن الذى أنزله الله
عليه . جاءنا من مكة رجل يقرئنا إياه .. ثم قرأ : ﴿ وجاء من
أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من
لا يسألكم أجرا وهم مهتدون ﴾ .

وكانت عيناه تدمعان وصوته ينفذ من خيوط المنسج وعينا
الفارسي على السيف المعلق . خيل إليه أنه يحتال فى قتال وإن كان
له غمد غليظ ، وتذكر يوم فقدته وعاد إليه مع رفيق سفره فأيقن أن
ذلك لأنه يريد الله . وأفاق الشاب بعد ما هوم برأسه كأنه نام
ونظر إلى الفارسي فإذا به ساهم . عيناه تنظران إلى بعيد وفيهما
عمق لا يدرك له مدى . وعندئذ ربت الشاب كتفه وهمس :

— عمى .. هل أنت نائم أو مفكر ؟ ..

— ١٠٩ —

همس الآخر :

— نبى ! ماذا تقول فى رجل آمن بمحمد قبل لقياه . وإن كان
مولى من موالى اليهود يخدم أرضهم ويرعى ماشيتهم .. نبى —
فلتأت كل ليلة تحت جناح الظلام بحجة أننى أعلمك ولكن
لتعلمنى ، لأحفظ منك ما حفظته من القرآن . سأشترى منك غاليا
برخيص .. فلا تبخل بشيء على بربك ..

فتح الشاب فمه وهو لا يكاد يصدق وهمس :

— هل أنت مسلم ؟

وطوقه بذراعيه وأخذ يقبله ثم قال بصوت خفيض :

— لكن ألا يشك بنى قريظة فى أمرى إذا ما استمر ترددى

عليك ؟

— لا تخف ، سأضعف جهدى لأقدم لأبى كعب من النسيج

ضعف ما اعتاد أن يأخذ منى حتى يوقن أن هذا من عمل يديك .

لن أنام ليلى لأغدق عليه من متاع الدنيا ما يريد . وهذا لكى تلقانى

فليس فى قدرتى أن ألقى أحدا هناك ما دمت رقيقا . فهل تعاهدنى

يا حسان ؟

— نفسى فداك .. فدى الحسر الرقيق . إن قيда من الحديد

يكبل جبل (أحد) غير قسادر فى نظرى أن يكبل نفسك

العظيمة .

- ١١٠ -

— نحن بانتظار شيء فعلينا ألا نحزن . أن لك أن تعود فياني
أخاف عليك ..
— وداعا ..

وأقفل الفارسي وراءه باب حجرته ثم جلس إلى المنسج يردد في
همس ما حفظه من القرآن ويهتف بين لحظة وأخرى : « وعندما
أرى وجهه سيلقى قلبى عصا الترحال . أما عقلى فسيف على عتبة
المعرفة . نعم . هكذا يا ربى يا منزل القرآن على أكمل إنسان ..
هكذا حكمتك .. سأغترف فيض الحكمة من بين يديه . وكان فى
قدرتك أن تجعل مولدى حيث ولد . لكنك شئت لى قبل أن ألقاه
أن تطهر نفسى فى نهر عاصف التدفق . نهر حياتى التى بدأت فى
مزرعة وانتهت إلى مزرعة .. وليس يكفى قلبى يا ربى أن أعبدك
على دين محمد لكن أن تجعل منى أحد جنود الإسلام وأن تكرمنى
بمشقة جديدة أجعلها وسيلة إليك ، مشقة يثقل وزنها على وزن
ما قد حملت فى سبيل ناس من اليهود كانوا قنطرة بى إلى شاطئ
الحكمة . فالعبرة بما نعبز إليه لا بما ندوس عليه .. إن أسباب دعائى
لك ممدودة كحبل من الأرض إلى السماء لا أريد أن ينقطع حتى
تقطع بيدك القادرة حبل أسرى . أما إذا كان ذاك سبيلا لرضاك
ونصرة لدينك فلا تقطعه . ولتكن هذه ورقة جديدة على شجرة
حكمتك » .

- ١١١ -

لم يشعر الفارسي أن المصباح قد نضاء من حوله لأن نور
النهار كان قد تسلل من كل شق وكل خصاص وفرش حجرته
المليئة بالصوف والحبال والتي يتدلى على أحد حوائطها سيف من
بلاد فارس .

وعندئذ فتح الباب ليستقبل السماء والرمال والنخيل وفي إحدى
يديه منجل وفي اليد الأخرى طعام يكفيه يومه .

★ ★ ★

٦

أصبحت حياته منذ ذلك العام فى جلال اللحظات تنغمس فيها الروح فى ابتهاج مقدس ، فلا تشعر بامتداد الزمن . وأحس أن حياته جديرة بأن يعيشها بل وأن ييخل بها على الموت .

ولأول مرة يذكر الموت بخوف . كم تتوق نفسه لمعرفة الصلاة الجديدة .. وما أشد ظمأه لأن يؤديها وراء النبى ..

وكان بنو قريظة فى خوف دائم . كانوا لا يفترون عن ترميم حصونهم وتجديدها لأنهم يعلمون بما تكنه قلوبهم من عداوة للنبى العربى ولعلهم كانوا يطمعون أن يكون النبى الذى وعدت به التوراة منهم هم .

ورآهم الفارسي وهم يعملون فى حصونهم ما يعملون ودعوه إلى أن يفعل ، لكنه قال لهم : إني لا أعرف فى هذا شيئا . ليس لى إلا الرعى والزرع . ثم هتف فى نفسه : « الله وحده هو الذى يعلم أننى ربما أكون من جنود يهدمون هذه فوق رؤوسكم » .

وانصرف إلى النخل .. صعد نخلة يجز جريدها وصاحب النخل
جالس تحته . أمامه نار عليها وعاء فيه تمر ولبن . والسماء فى صفاء
اللازورد . نظر إليها الفارسى ونسى نفسه .. وحلق فى أبى كعب
أسفل فأحس أنه ضئيل .. قمىء جدا فى قماءة الجرذان التى تسكن
معه الحجرة . ولاحظ له من فوق النخلة منازل بنى قريظة
وحصونها . ومن بعيد أيضا رأى الحجرة التى يسكنها . خيل إليه
أن نفسا من أنفاسه لم يخالط هواءها قط . كوطن غريب . اتجه
ببصره نحو الجنوب حيث تقع المدينة والطرق المؤدية إليها ..

وعاد فنظر إلى السماء . رأى طيوراً تتضام وتتجمع كأنما سمعت
دعاء طائر تحبه . وفى قلبه اليوم حبور . وأحس فوق ذلك بشيء
مادى .. إن عينيه قادرتان أن تحترقا الحجب وكأنه يرى بلاد فارس
من فوق النخلة ويرى ناسا داخلين إليها وهو بينهم .

وتبسم . وسمع هتاف أبى كعب ينادى به :

— يا فارسى .. لقد نام أحدهم على نخلة ذات يوم فسقط فدق

عنقه .. هل تسمع؟؟.

لم يرد عليه بل أخذ يعمل بالسكين فى أبصول الجريد ولم يلبث
إلا قليلا حتى رأى رجلا من اليهود يجرى نحو أبى كعب ، وأحس
قلبه أن حادثا قد وقع فكف عن العمل ونظر أسفل النخلة . وكانا
فى بادئ الأمر يتهامسان فلم يسمع ما يقولان لكن أبا كعب

- ١١٤ -

اضطرب وتراجع حتى انكفأ وعاء طعامه على الأرض . ثم ارتفعت الأصوات . قال أبو كعب غاضبا وهو ينظر إلى اللبن المراق :
- أليس هذا فألا سيئا .. إنكم يا بنى قريظة من أشهر الجبناء . تصدقون كل شائعة وتبحرون في كل اتجاه .. من قال لك هذا يا رجل ؟

رفع الثاني عقيرته صائحا فيه :
- قاتل الله بنى قيلة ، إنهم ليتقاصفون عليه بقاء ، وقد قدم من مكة ، ويزعمون أنه نبي ..

أما أبو كعب فخر جالسا . وأما ابن عمه الذى كان يحدثه فولى يجرى كأنه يبحث عن ملاذ . أما الفارسى فقد أخذ يرتعد .. اضطكت أسنانه ونضح عرقه ، أما القلب فقد كان له لغته الفريدة ، كان فى استعداد وخوف ليس من ذلك الخوف الغريزى المعروف ولكن كان مزيجا من رهبة وإجلال وشوق يبلغ حد الظمأ . وبلغ به حد أنه كاد يرمى بنفسه من فوق النخلة ، ولكنه نزل سريعا كأنما نداء كل القلوب المحبة انصب فى أذنيه الآن ..

وارتاع أبو كعب حين داست أقدام الفارسى العارية على فضل رداءه وهو جالس ينظر بحسرة إلى اللبن المراق ويتدبر ما قاله اليهودى عن مقدم النبى .. نظر أبو كعب إلى مولاه نظرة رجل يتهم بالجنون رجلا آخر . فقد كانت عيناه الفارسيتان - تحت

- ١١٥ -

حاجبيه المقرونين - فى اتساع مخيف . وفى سوادهما رأى اليهودى شخصه . وكان الفارسى يلهث . يهتز صدره المفتوح اللابس قميصا من الشعر الأسود تحت قميصه الداكن . وفى يده سكين وعلى كتفه جبل . وفى ساقه قدرة على الجرى بحيث تسابق الريح .

وبعد لحظات سأل اليهودى :

- هل جنتت يا فارسى ؟ هل لدغتك عقرب ؟ .

همهم :

- ماذا .. كنتما تقولان ؟

لكزه اليهودى فى جنبه لكزة قوية أودعها كل مخاوفه وحقدته فهو يعلم أن النبى القادم إلى المدينة « رحمة للعالمين » جاء ليمحو الذل والعوز والكبرياء والثرثرف .. والفارسى أحد الذين سيعزهم دينه . وكان لا يزال واقفا بانتظار أبى كعب الذى ما لبث أن قال له :

- مالك ولهذا .. اذهب إلى عملك ..

فصعد النخلة من جديد . وأخذ يترنم بذلك الحذاء الذى سمعه فى وادى القرى يوم غدره اليهودى الأول وباعه لهذا الجالس تحت النخل كأنهم يدفعون به من حيث لا يشعرون إلى طريق الله .. جعل يترنم :

- ١١٦ -

يا نخل تحت ظلك الحبيب

يا ليت لى فى الظل من نصيب

.....

ولما سمع الغناء أبو كعب جعل يتلفت ثم رفع رأسه إلى أعلى بعد
أن عرف المصدر وقال للفارسي :

- ليس تحت ظل النخل سوى يا فارسي . شكرالك ..
ما رأيت عبدا يحب مولاه مثل حبك لمولاك ..
هتف الفارسي من أعلى وبصوت صعد نصف منه إلى السماء
وهبط منه إلى الأرض :

- ما قلت كلمة صدق يا أبا كعب سوى هذه ..

★ ★ ★

ملأ وعاء من الخوص الحديد بأطيب أنواع ثمر المدينة ، ولبس
ثيابه المغسولة . ونظر إلى سيفه المعلق . وأمد المصباح بزيت
جديد . وطيب كفيه بأن فرك بينهما بعض الأعشاب العطرة وأقفل
باب حجرته والليل ساكن ثم خرج متسللاً يريد « قباء » حيث
نزل المختار .

لم تترج اليقظة الحادة بالخدر الغامض فى شعور إنسان بقدر
ما كانا يمتزجان فى شعور الفارسي وهو يحمل وعاء الخوص ويمشي
تحت النجوم . كان ينظر إليها فتغمر كأنها تذكره ببعض قومه

الذين عبدوها فأشاح بوجهه .. ولم تنبحه كلاب بنى قريظة حتى عبر .. ثم سار نحو قباء .

وعندما قارب المكان الذى نزل فيه النبى ، وقف فى العراء ووعاء التمر تحت إبطه ونظر إلى السماء وهتف :

« يا من خصصتنى دون أهل بلادى بأن أرى هذا النور ، اجعلنى أهلا لأن أنظر إليه .. وكحل به عينى وقلبنى » .

ثم مضى ..

وقف قريبا من مجلسه بطوله الفراع وأجلاده القوية . وكان حول الرسول عدد من بنى عمرو بن عوف ، وإلى جانبه الصديق أبو بكر . ولم يكن الفارسى يعرف أين النبى فى الجالسين لكنه بعدما أدار عينيه فيهم وهم يتحدثون ، عرف الطلعة التى ترى بالقلب . كان يتكلم فى جلال ونبرات حديثة تخط للمسلمين وطنا جديدا ستشرق الشمس فيه .

ولم يتقدم حتى سكت النبى عن الحديث . وعندئذ خطا إليه . أحس أنه يدوس بقدم عارية على أبسطة كسرى ليلقى الرسول . والمرئيات حوله مثل ستائر تهتز وكل حسه متجه إلى محمد .

ومن جديد وقف مرة أخرى . وأخذته عينا النبى . أحس بقوة رفعته ثم التقطته .. شعر أنه فى محتواها .. فى حيزها بكل كيانه .

— ١١٨ —

التلاشى مع الوجود فى وقت واحد . لكنه عاد يشعر بوجوده أكثر
من تلاشيه عندما ابتسم النبى سائلا فى رفق :
— من الرجل ؟ تقدم ..

وتلفت الحاضرون وعرفه بعضهم ، وتقدم ذلك الذى كتب الله
عليه أن يسبح فى الأرض حتى يلقى نبيه وجلس بين يديه واضعا
وعاء التمر إلى جانبه (جانب الفارسى) وقال للرسول :
— أنا .. سلمان الفارسى .. اسمى سلمان الفارسى ..

فأطرق الرسول مليا ثم رفع رأسه ونظر إليه ثم هز رأسه
وابتسم . وكل ملامحه تدل على تقبل عظيم . واستطرد سلمان :
— « إنكم أهل حاجة وغربة . وعندى طعام نذرتة للصدقة .
فلما ذكر لى مكانكم رأيتم أحق الناس به فجمتكم به » .
وأشار إلى الوعاء . فقال الرسول لأصحابه : « كلوا باسم
الله » وأمسك هو فلم ييسط إليه يدا .

وعندئذ هتف سلمان فى نفسه : « رحم الله شيخ عمورية ..
لقد زودنى بعلامات أعرف بها النبى الذى كان ينتظره .. اللهم إني
مؤمن به .. لكن هذه واحدة .. فإنه لا يأكل الصدقة .. » .

- ١١٩ -

وبعدئذ تراحمت الوفود على الرسول وتأخر الفارسي ليخلى
السبيل لغيره . . وعاد إلى مسكنه في الليل من جديد . تمدد على
فراش الخوص فأحس أنه خشن . لماذا ؟ .. وفكر فأدرك أنه منذ
قليل أحس وكأثما وطعت قدماه الخافيتان على بساط كسرى .
فتبسم . وظل يعاني أرق المشتاق حتى قرب النهار فخرج إلى
عمله . ثم عرج على السوق واشترى من أطيب طعام المدينة وسار
مرة أخرى إلى الرسول .

رأى رجلا على هيئة المسافر ، هلل القوم وكبروا حين دخل
عليهم ، ونهض الرسول وعانقه وفي عينيه حب وشكر . وسأل
سلمان عن القادم فعرف أنه على كرم الله وجهه وكان قد تخلف
في مكة حتى أدى عن الرسول الودائع ولحق به في قباء .
عندئذ تقدم سلمان وسلم ثم جلس بين يدي الرسول الذي نظّر
إليه واستطالت نظرتيه وقال له :

- « إيه يا سلمان .. » .

فأطرق الرجل وهو يقول :

- إني رأيتك لا تأكل الصدقة .. وقد كان عندي شيء أحب
أن أكرمك به هدية » .

ووضع الطعام بين يديه . فقال الرسول لأصحابه :

- « كلوا باسم الله » ..

— ١٢٠ —

وأكل معهم ..

عندئذ هتف سلمان في نفسه : « رحم الله شيخ عمورية ..
لقد زودني بعلامات ثلاث أعرف بها النبي الذي كان ينتظره ،
وهذه والله العلامة الثانية .. إنه يأكل من الهدية » .

★ ★ ★

قال سلمان وهو في الطريق إلى بعض شأنه حين لقي رجلا
عرفه :

— هل أنت أبو أيوب خالد بن زيد ؟ .. لعلني غير مخطئ إذ قلت
ذلك ..

— ولعلني غير مخطئ أنا الآخر إن قلت : أنت سلمان الفارسي .
وفد عرفتك بقامتك منذ جلست بين يدي رسول الله .

فأقبل سلمان على الرجل يلثمه ويقبل يديه ويهمس : « هاتان
اليدان اللتان حملتا رحل رسول الله عن ظهر ناقته حين أناخت أمام
دارك فدخلت بالرحل بعد أن نزل الرسول في بيتك .. » فقاطعه
الرجل قائلاً :

— هل أنت مسلم يا سلمان ؟

فردد آيات من القرآن ..

فدهش وسأله :

— ولماذا لا تجهر ؟.

فقال سلمان :

- قل لى أولا أين ألقى الرسول اليوم ؟.

- تعال معى .. أسرع ..

وهناك فى البقيع رأى الرسول يتبع جنازة ، فسار حتى أدركه ..
« وكان حوله أصحابه وعليه شملتان . مؤتزرا بواحدة مرتديا
الأخرى » .. فسلم عليه ثم عدل وتأخر لينظر أعلى ظهره ..
وما هى إلا لحظات حتى ألقى النبى برده عن كاهله ، فقد أحس
بما يبحث عنه الفارسى فهتف سلمان فى نفسه : « رحم الله شيخ
عمورية .. لقد زودنى بعلامات ثلاث أعرف بها خاتم المرسلين ..
وهذه والله هى الثالثة . إذ قال لى : سترى بقلبك حين تنظر بين
كتفيه خاتم النبوة .. شهدت أنك رسول الله حقا وصدقا » .



وعندما دخل الليل ذهب سلمان إلى الرسول . كان فى هذه
المرّة شاعرا بأنه سيلقى بكل أثقال نفسه بين يديه . وعندما لاح
بعوده الطويل على مقربة من مجلسه تبسم له النبى ابتسامة أعرض
من كل ما قد لقيه بها من قبل . كأن نورها يقول له : « آن لك
أن تجهر بما فى قلبك » . وخاض الجمع إلى حيث يجلس عليه
السلام ومال على يديه يلثمها ناطقا بالشهادتين وعيناه تدمعان .
وفى كل قطرة دمع بذوب أعوام طويلة من الشوق .. وربت

- ١٢٢ -

الرسول على كتفه ليجلسه . وعندئذ انضم إلى جنود الله فارس من أرض فارس . حمل عنه الرسول أثقال نفسه حين أمره أن يقص عليه قصة حياته .. ففعل حتى إذا ما قال إنه رقيق في بني قريظة .. أمر النبي أصحابه أن يساعده ليتحرر ، وعن طريقهم سيدفع الفدية ..

★ ★ ★

غير أن سعادة الروح لم تكتمل لسلمان مرة واحدة .. فقد امتد زمن رقه عند بني قريظة عدة سنوات ..

دخل حسان ذات مساء وجلس على المنسج وأخذ يردد على مسامعه ما سبق أن تناهى إليه عن انتصارات المسلمين في بدر . فأخذ سلمان في البكاء . وعندئذ صعد الشاب فقال له سلمان وهو يحفف دمه بكمه :

— إنك كنت وراء المسلمين لتزودهم بالنبال . وكان أبوك في المقاتلين وأمك كانت تواسي الجرحى ، ومن ثلاث طرق يا بني دخل إلى داركم رضوان الله ؛ أما أنا .. فانظر موقف من تدعوه « يا عمي » .. ففي هذه الحجرة فارس وسيف وإيمان . الرق يمنعهم من العمل ..

قال الشاب في تعطف شديد :

- ١٢٣ -

— كل ذلك لميعاد . لا تحزن يا عمى .. فليس يسرنى أن أقول
لك ما سمعته عن أبى من أن المشركين يجمعون فلولهم ليتقمموا من
المسلمين .. الطريق طويل يا عمى وفى العمر مجال بإذن الله .
وانقطعت أخبار حسان . فخرج سلمان يتحسس أخباره . فى
فترة كان المسلمون فى المدينة يعيشون فى أحزان ويتجهون إلى الله
أن يعيد إليهم أفراح « بدر » موقنين أن ما حدث لهم فى
« أحد » ليس إلا امتحانا لإيمانهم .
وعلم سلمان أن الشاب قد جرح وأن دماء زكية سالت على
الرمل ، ولأول مرة يحس بكمد لا يعرف له وصفا ، فى داخله
اعتزكت قوتان ، كان تحتها أشبه بأسد حبيس ، يحس أن الزئير
فى الحبس شكوى ، وأنه لن يزار إلا وهو طليق السراح .
وفى هذه الليلة أوى مبكرا إلى مرقده ، وكأنه دفن جملة أعزاء .
ذلك الذى ولى ظهره لوطنه وأهله وألقى نظرة غير دامعة على
حجرة أبيه وخرج آخذا بمدخل الطريق إلى الله .
نام يتقلب ويتلو القرآن . فإذا بالباب يدق عليه . وكان الطبارق
حسان ومعه رجل آخر لم يسبق لسلمان أن رآه . وكان معه المبلغ
الأخير الذى سيؤدى لأبى كعب لكى يصبح حرا .. لا .. بل لكى
يصبح الحر حرا . ولما سمع سلمان حديثهم . تقدم إلى الحائط ونزع
السيف من على الجدار وتقلده . ولما سألوه عما يفعل لم يجب فقد

- ١٢٤ -

كان مدركا أن كل ما سيحدث إنما هو في سبيل الله متشككا في
نيات أبي كعب القرظي .

سار ثلاثهم إلى دار أبي كعب ، ودق سلمان الباب بقبضة يده
القوية مدركا أنه يطالب بـ « معنى الحياة » لذلك شدد القبضة
وردد الطريقة . وجاء صوت مستكين ممطوط صالح للشكوى من
امرأة في الداخل :

- من الطارق ؟ ..

رد صوت حازم :

- أنا سلمان . أريد أبا كعب حالا ..

صمت قليل قالت بعده المرأة :

- أو .. إنه نائم .. في الصباح يا سلمان ..

- لا يا امرأة . فإن معي ما سيجعله يقفز للقائى ماشيا على يديه

لا على رجله إذا ما أخبرته به ..

جاءتهم ضحكة وانية .. :

- دراهم إذن ؟؟ هيه ؟؟

- نعم دراهم ..

ولم يلبث أبو كعب أن خرج إليهم في رداء نوم قديم وأمامه
امراته تحمل مصباحا . فلما رأى السيف على عاتق سلمان ذعر
لكنهم سارعوا وأبرزوا له المال .. فضحك :



يحبس أن الزئير في الحبس شكوى ،
وأنه لن يزأر إلا وهو طليق السراح

- ١٢٦ -

- اعذروني ما رأيتم سلمان يحمل سيفاً قبل الليلة .. عهدى به
يحمل .. آه .. (يريد الفأس) .
فقاطعه سلمان :
- عرفتني منذ أعوام زارعا .. وستعرفني في غد محارباً ..
وسرى أى الرجلين أبرع من الآخر ..
قال أبو كعب بعد أن أخذ المال منهم :
- ليس يعنيني الآن منك الزارع ولا المحارب .. انصرف فأنت
حر ..

فهم حسان بلطمه ولكن سلمان قال :
- الفأس له والسيف لله .. ولكم معنا موعد يا بنى قريظة ..
★ ★ ★

« فدتك نفسى يا رسول الله .. ها أنت ذا تراهم فى عددهم
الضخم فى شمال المدينة .. قريش وحلفاؤها . يريدون أن يثأروا
لقتلى بدر وأحد . وبنو قريظة فى المدينة من حلفائهم . فدتك
نفسى يا رسول الله . إن رأيا .. إن أقررتهم كان من سلاح الله وإلا
فهو ن خاطرة إنسان » .

هذا ما قاله سلمان للرسول وهو يتفقد المواقع حول المدينة
ليصف جيش المسلمين فى وجه الشرك . بعد أن دخلت النساء
والأطفال إلى القلاع وأقفلت الأبواب . وكانت المدينة محاطة

- ١٢٧ -

بالجبال إلا مدخلا واحدا . وكان المسلمون فى قلق . وأخذ المنافقون يذرون بذور الفتنة .

أقبل سلمان على النبى يقول له :

« الفرس يحفرون الخنادق حول المدن لحمايتها من الهجوم » .

زاد وجه الرسول استضاءة وإشراقا ، ورأى المسلمون ذلك على النبى فأيقنوا أن الله أهدى إليهم النصر . وشمر رسول الله عن ساعديه الطاهرتين وأمسك بالفأس وبدأ حفر الخندق ، وتعالى التهليل والتكبير من كل جانب حتى وصل الصوت إلى النساء فى الحصون فحاولن أن يطلعن ليعرفن الخير . وأخذ سلمان فأسه وأخذ يحفر أرض المدينة ، وهو يذكر تلك الأيام التى كان يكسر فيها الأحجار لليهود . وأخذ يهتمهم بآيات من القرآن . قطعها عليه أول الأمر صوت ندى غذى أعاد إليه ذكريات خالية . أبعد مدى من حوادث هذه الأيام . تلك الحوادث الفذة التى تهز قلبه كأنما لتوقظه من ماذا .. من اليقظة ؟ حتى سبح سلمان فى إحساس لا يكاد يكون أرضيا . إذ هو بين المسلمين يأخذ النبى بمشورته . ما أعظم هذا الوسام الذى حظى به .. وسام من نجوم السماء .

لكن صوتا نديا فى الشوق يأتى من أحد الذين يحفرون . آه ..

إنه .. هو ذلك الوثنى الذى كان يغنى على نهر دجلة يوم لقيه فى القافلة الخارجة من فارس .. سهيل العربى .. إنه هو ولا شك .

وأحسن سلمان أن فيضا إلهيا عظيما يرفعه كما يرفع البحر السفينة . وترك فأسه لحظة وسار إليه . وكان قد وصل مهاجرا من قبل ذلك بيضع ليال .. وناداه سلمان فرفع إليه وجهه .. وثب كل منهما إلى الآخر يعانقه ويكسى .. وقلب كل منهما يتذكر مقالة سلمان : « لن نلتقى إلا إذا كان إلهنا واحدا يا سهيل » .. وها هما اليوم قد التقيا على الإله الواحد .. ونبههم يفرق في العمل ويحفر معهم حول المدينة . وبعد ذلك قال سلمان لصاحبه :

— هلم نحفر معا .. تعال إلى جوارى فأنت فأل طيب في حياتي يا سهيل ..

ثم أقبل الليل ، والسكون في جبهة المشركين يخيم خائفا وجلا وإن كان العدد عظيما — عددهم الذى ربطته خيوط من المصالح مثل نسج العنكبوت .

أقبل الليل .. وفتح الخندق فمه .. حول المدينة . مثل وحش أسود يرقد .. إن داسه أحد أهلكه .. ونظر إليه المسلمون وأيقنوا أنه نصر من الله .. فلم يسع المهاجرون إلا أن صاحوا ذاكرين الفضل لصاحب المشورة . لسلمان :

— سلمان منا ..

ولكن الأنصار رأوا أنفسهم أحق بهذا ، فإذا كان المهاجرون قد اعتبروه فى الإسلام مهاجرا كان الأنصار سكان المدينة اعتبروه مقيما . فهم مثل « خزر جى » أو « أوسى » .. هو « أنصارى » فصاحوا ذاكرين الفضل :

- لا .. بل سلمان منا ..

وكان رسول الله يطوف بالمسلمين . ليرى ما تفعله القلوب المؤمنة بالأرض الصلدة فسمع تهافتهم فأقبل حتى وقف فى مكان وسط بينهم وقال بصوت هادئ :

« سلمان منا آل البيت » .

ولما سمع سلمان مقالة النبى أحس بعراقه نسبه . وحضرته صورة الدهقان أبيه وهى تدخل فى ظلام لا نهاية له ، ولكنه شعر بنفس الشعور الذى داخله وهو يخطو الخطوات الأولى إلى الرسول وهو فى مجلسه بين أصحابه فى قباء بعد الهجرة بيومين اثنين . شعر سلمان أن يديه اللتين ألهبت الفأس بشرتهما بمسك بأستار حريرية فى قصر كسرى ، هذه المرة شعرت يدها ، وفى المرة السابقة شعرت قدماه القاصدتان إلى النبى فى مجلسه — بأنها تدوس على بساط كسرى .

وبعد قليل ارتفع فى سماء المدينة حول الخندق لغط المسلمين وهم يعملون . وجاء حسان بن ثابت الأنصارى فقال عدة أبيات من

— ١٣٠ —

الشعر ألهب حماسة القلوب وعاد إلى حيث يقف فى حراسة القلاع
التي بها نساء المسلمين وأطفالهم .

واستتب الظلام وهم يعملون . وفى هذه المرة وقف سلمان متعبا
يتصبب العرق منه . كان هو وسهيل يضربان فى صخرة لا تريد أن
تنكسر . وكان لابد من كسرها . واجتمع ساعدان فارسى وعربى
تحت الراية لكسر الصخرة لكنها أثبت عليهم . كانت فى عناد قلب
المشرك .. نظر إليها سلمان تحت جناح الظلام وتبسم .. كان يرى
أنها ستتكسر حتما .. وضع فأسه عليها ومشى يبحث عن
الرسول . وعندما مثل بين يديه أخبره بأمر الصخرة وهل يمكن
توفيرا للوقت والجهد أن يدور الحفر حولها ويتركوها فى مكانها ؟ .

وسار الرسول فى صمت . ثم وقف أمام الصخرة ونظر إليها .
كانت على هيئة حية قصيرة مقوسة . غامضة لا يعرف أين رأسها
وأين ذنبها . وقف النبى أمامها برهة ودعا الله ۝ ثم طلب معولا .
فأتاه سلمان به . وأمر النبى أصحابه أن يتعبدوا عن مرمى الشظايا .
وسمى الله وضرب الصخرة ضربة فجّرت منها شرارا أضاء الليل
حتى رأى المسلمون وبينهم سلمان نواحي المدينة كلها . وراع
المسلمين أن سمعوا رسول الله يقول :

— الله أكبر .. أعطيت مفاتيح فارس . ولقد أضاء لى منها قصور

الحيرة ومدائن كسرى . وأن أمتى ظاهرة عليها » .

— ١٣١ —

وانكسرت الصخرة من الضربة الثالثة ..
وأطرق سلمان فى خشوع وهو يقول فى نفسه : « صدق الله
ورسوله » . ورأى فى ظل الإطراقة جيشا لجبا يمشى فى المستقبل
من حيث يقف هو والمسلمون الآن - متجها نحو الشمال الشرقى .
إلى حيث يعود سلمان الفارسى إلى الأرض التى فيها مهده .. مهد
من الحرير والديباج أنكره قلبه الذى ظل يضرب فى الأرض باحثا
عن الحقيقة .

★ ★ ★

٧

ها هو ذا السابع عشر للهجرة والدنيا تغيرت ..
قبض النبي إلى الرفيق الأعلى والخلافة اليوم على يد عمر ..
والمسلمون معسكرون الآن على الشاطئ الغربى لنهر دجلة
والنهر فى فيضانه يجرى نحو الخليج بسرعة تدوخ ..
كان سلمان الفارسى ورفيق سفره القديم وأخوه فى الدين
الجديد سهيل العربى بين الجنود .. ينظران إلى النهر ويذكران يوم
ركباه نحو الشمال . يوم كادت السفينة توشك على الغرق وركابها
يبتهلون إلى الله ..
نظر كل صديق إلى صديقه نظرة حملت مجمل القصة ثم انصرف
كل إلى أفكار أخرى ..
أطرق سلمان لأنه تذكر حادثا لا ينساه . ذلك الذى وقع يوم
الخنندق ، يوم انبعثت الشرارة من الصخرة بيد النبي فبشر المسلمين
بأرض فارس .
نخيل إلى سلمان أن ضوعها لا يزال .. ثابتا على الأفق الشرقى
مثل طلائع الشمس . وتحت وهجها السماوى تأخذ عيون المسلمين

- ١٣٣ -

إيوان كسرى الأبيض فى « مدائن الإيوان » على الشاطئ الآخر للنهر ..

وقهقه سهيل العربى فجأة والمعسكر فى سكون فنظر إليه سلمان الفارسى وابتسم فى صمت . لكنه سأله بعينه عما أضحكه ، فقال سهيل :

- واحدة بواحدة .. خيلنا خافت فى اللقاء الأول من منظر الفيلة فلما برقنا إبلنا وجللناها ذعرت منها الفيلة .. وعلى كل فقد قطعنا أحزمة سروج الفيلة فأسقطنا ركابها وضربناها بالنبال فى آذانها .. خيل الله أقوى يا سلمان ..

وعاد يضحك ، لكن سلمان لم يأبه له .. فعرته نوبة شديدة من القلق وسأله سهيل :

- ما بك يا صديقى ؟

- لا أستطيع أن أصف يا سهيل .. ماذا تظن أننى قائل ؟ لقد أنجلى الله إذ لم يترك لى رجاء إلا حقه . أريد أن أشعر دائما أننى محتاج إليه . فباحتنا إليه سندخل قصور المثرفين . وماذا أقول لك يا سهيل .. إن أبا ذر الغفارى خوفنا من هذه المباحج . لكن درة عمر تكسر باب كل باطل . إننى أسأل نفسى يا سهيل الآن وأنا أنظر إلى دجلة المتدفق الذى سنعبه حتما إلى قصر كسرى : « هل أنا عائد إلى وطنى أو هل أنا قد تركت خلف

ظهري وطنى فى المدينة ؟ » إننى أشعر أن وطنى خلفى . لقد
وطئت قدماى حافيتين إلى الرسول فى مجلسه فأحسست أنهما
تطآن - مقدما - بساط كسرى . ترانى يا سهيل هل سأرى أحدا
من أهلى .. أهلى بحكم أنهم نسلونى .. أخذت منهم اللون وليس
اللون هو البناء كله .. إن محمدا هو الذى بنانى .. ماذا أقول
يا سهيل .. لا شىء . وبحسبى ما قلت .. دعنى أذهب لسعد بن
أبى وقاص لأسأله ما ينتظر . فقد جاء إلى منذ قليل من أخبرنى أن
الفرس يجلون بكل ما يملكون عن مدينة الإيوان .

وترك سلمان صديقه واتجه حيث ينزل سعد . وجعل سهيل
يتذكر ما كان يفعله سلمان حين دخلوا المدائن الدنيا . كان يقف
بحصانه فى كل مفترق طرق شاهرا سيفه ويخطب بالفارسية فيلتف
حوله الناس ليسمعوا سحر بيانه :

- « ليس غاية المسلمين ما فى أيديكم بل غاية المسلمين ما فى
قلوبكم .. إننا نريد أن تخرجوا من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة » ..
« كنت ابن دهقان كسرى كفرت بالشرك وتركت أرضكم
وخرجت أبحث عن الله فهدانى محمد إليه .. وهأنذا قد عدت
لا لأبحث عن أرض أبى وحظائره ورقيقه ، فقد ذقت ذل الرق .
ولكننى عدت مع المسلمين .. ولا فضل لعربى على أعجمى
إلا بالتقوى » .

— ١٣٥ —

هذا ما كان يذكره سهيل العربى من بعض ما قاله سلمان
الفارسى حين خاطب الفرس بلغتهم ... فى الوقت الذى كان
سلمان فيه عند سعد .

وعاد سلمان بعد فترة وعلى وجهه علامات التأهب .. حاجباه
المقرونان بينهما تقطعية فارس عريق .. وشفته مضمومتان وصدره
مفتوح ... ولم يكد سلمان يلقي بالخير إلى صاحبه حتى كانت
همهمات وتهليل وتكبير .. تسرى فى صفوف المسلمين .. وتقدم
سعد بجواده الأبيض . كان فى لون إيوان كسرى .. وكان ذنبه
يهتز فى خيلاء .. وإن كان سعد يتململ على سرجه لأن جسمه
كان مملوعا بالخراريج بقية ما كان فى القادسية ..

وزجر نهر دجلة وتكاسحت أمواجه لكن سعدا أمر كل مجموعة
من الفرسان أن تتضام وأن تجعل الرماح بينها مثل الأربطة حتى
تقوى المجموعة على مقاومة الموج .

سبحت الخيل بمجموعات بمجموعات فى مئات من الفرسان وكان
سهيل فى مجموعة سلمان . وبين وقت وآخر كان سعد يهتف فى
مقدمتهم سائلا :

— أهنأك غريق ٩٩ —

فتأتيه أصوات فرحة :

— لا يابن أبى وقاص .. إلا واحدا وانتشلناه ..

- ١٣٦ -

فصاح سعد :

- من هو ؟؟

فأجابوه :

- سهم سقط فى النهر من جعبة أحد الفرسان فلم ندعه

يغرق ..

فيرد ابن أبى وقاص :

- يا أتباع محمد .. أنتم على حق . فإن سهما لله لا يغرق .

وفى خلال العبور ، ارتفعت أصوات بآيات من القرآن ..

ونادى أحدهم بأعلى صوت عندما بدأ الشاطئ الشرقى فى

الدنو من المسلمين :

- « رباه .. أين أنت يابن الخطاب لترى بعينيك » .

وتتابعت الخيول ووقفت تنفض الماء من على جلودها على

الأرض كما تفعل الطيور المبتلة . ونظر سلمان إلى ما حوله ..

تذكر ذلك المكان جيدا ۞ تذكر المدخل المشجر والحديقة ذات

الأزهار التى تطل عليها نوافذ الإيوان . ففى هذا المكان منذ الصبا

الأول جاء مع أبيه الدهقان حاملا هدية الفلاحين الجبرية إلى

كسرى فى أحد أعياده .. وها هو ذا يتقدم مع المسلمين نحو المكان

نفسه . غير أن الراية اختلفت ..



وتقدم سعد بجواده الأبيض . كان في لون إيوان كسرى

— ١٣٨ —

كانوا مقدرين أن تسبق إليهم فرسان المقاومة لكن سبق إليهم الصمت المخيم على المكان . وفر يزدجرد وأتباعه حاملاً أولاده وما استطاع حمله من ماله ..

ودق قلب سلمان . ها هم أولاء جنود المسلمين يدخلون الإيوان ، القباب تردد صدى هتافهم ، والتماثيل النادرة كأنها تنظر بعيون مذهولة « وجوه سمراء .. وجنود شعث غبر » زينهم عقيدتهم وطيبهم دعاؤهم ..

ولم يلبث المسلمون أن بهرت أبصارهم ، لكن سعدا تقدم بهم إلى أحب الأبناء ليصلى لله شكراً ويقرأ : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون .. ﴾ .

ثم أقبل سلمان على ابن أبي وقاص وعانقه يقبله كأنما هى تحية للعرب فى أرضهم الجديدة ..

★ ★ ★

قال سهيل العربى لصديقه سلمان :

— ماذا تريد يا سلمان بعد أن أصبحت واليا على المدائن . وبعد أن ولاك عليها عمر بن الخطاب وهو من هو حزما وقوة ونفاذ بصيرة .. هذا فى رأى وسام جديد بعد الوسام السماوى الذى قللك إياه رسول الله عليه السلام حين قال يوم الخندق : « سلمان منا آل البيت » .. هلم قل لى ماذا تريد بعد ذلك ؟ .

— ١٣٩ —

فأطرق سلمان . وكان جالسا تحت ظل شجرة أمام أصغر بيت
فى المدائن وهو يجدل نحو صا لياكل من كد يده « فهو يوزع راتبه
على المحتاجين . أطرق ثم رفع رأسه وقال لسهيل :

— هلم معى إلى الضيعة القديمة .. ضيعة والدى فى قرية
« جى » .. إلى حيث ولدت هناك يا سهيل .. تعال لترى موطن
المجوس .. لترى أين داست قدمائى وأنا طفل .. وفى الطريق
سنتحدث ..

وركبا إلى هناك . كل على حصان . ولم يكن معهما أحد . فما
كان والى المدائن الجديد امتدادا لنظام كسرى بل هو دين جديد ،
يخرج من الظلمات إلى النور ..

وكان سلمان يقول لصديقه والجوادران متحاذيان كأنهما
مشدودان فى مركبة :

— هل تدري ماذا قال لى ابن أبى وقاص ؟ .. إن الغنيمة الكبرى
التي غنمها فى هذه الفتوح ثوب واحد . هل تعرف ما حقيقته
يا سهيل ؟ .. إنه ذلك الثوب الذى جرح وهو لابس فى غزوة
بدر . فيه بقعة من دمه وخرق من نبلة مشرك سيقدمها بين يدى
أعماله يوم لقاء الله . وقد أوصى أن يكفن فيه .

هز سهيل رأسه وقطب حاجبيه كأنما يسأل نفسه ماذا فعل ..
لكن سلمان استطرده :

— ١٤٠ —

— أما أنا فقد حصلت يوم موقعة جلولا على غنيمة نادرة ..
صبرة بأكملها .. صبرة مملوءة بالمسك .. سأذيه بيدي في الماء ليكون
حنطى يوم ألقى الله .. فما أعظم هذه الغنائم ! ..
وسكت الصديقان . كان وقع حوافر ثمانية للجوادين يدق على
الطريق الصلب كدق يوقع لحنا مقدسا . ثم استتب الصمت
لحظات قال بعدها سلمان :

— سهيل .. هل تعرف مم أخاف اليوم ؟

فأجاب صاحبه :

— لا .. قل لي ماذا يخاف قلبك المؤمن ؟

فقال :

— أخاف أن يمتد بي الأجل حتى أرى المسلمين وقد فتنهم متاع
الدنيا وزخرفها . في هذه الزخارف التي حولك يا سهيل لم يستطع
أحد أن يرى الله . لكنها اليوم تحت ظل الإسلام الفتى القوى
تحدث عن الله لأن فيها حقا لكل مسلم . ولكن يا سهيل .. إنها
يوم ينشأثر بها القوى دون الضعيف والحاكم دون المحكوم فإنها
ستكف عن التحدث عن الله . ستعود زخرفا أخرس ذا لغة شيطانية
وسيقول الناس مقالة الرسول : « رحم الله أبا ذر » .

آه يا سهيل .. ما أجهل احتياجنا إلى الله .. وكل شيء يلهى —
حين ننسى احتياجنا إلى الله — فهو قبيح لا يساوى شيئا . فأهلا

- ١٤١ -

بالمكارة ما دامت هي الطريق إليه . ليتنا نرى الراعى يا سهيل ..
ربما لا يزال على قيد الحياة ..

- من ذلك الراعى ؟

- من رعاة أبى الدهقان . رأيته يجلبده يوما فأحسست وقع
السوط على جلدى .. أخذت ثيابه بعد ذلك وهربت ودعوته
بسيدي فكاد يجن .. سيكون مسلما إن كان حيا فهو بحاجة إلى
دين (السواسية) .. وربما وجدت عنده ثيابي القديمة كتذكار
تاريخي .

وتنهد سلمان .. وسبح فى ذكريات لم يمرؤ على البوح بها فقد
كانت صورة (بوران) أخته تطوف بخياله ..



« والآن هذه هي قريتي التي هربت منها » .

هتف سلمان بهذه العبارة وكأنه فى حلم . وسار على قدميه
وحده فى هذه المرة تاركا سهيلا فى مكان أمين سيلقاه فيه . ذهب
يجرى نحو المزرعة فإذا برجل قصير مسن جالس عند باب الحظيرة
ولم يكن فيها خنازير بل كان فيها أغنام . وعرفه سلمان من صوته
حين سلم عليه .. ثم ذكره بنفسه . وقال له :

- لقد جئت مع جنود المسلمين وأنا واحد منهم .

- ١٤٢ -

فاحتضنه الراعى باكيا وقاده نحو الحجرة القديمة التى لقيه فيها
آخر مرة .. وجلس معه . يمسح على كتفيه وجنبه بين لحظة
وأخرى كأنه لا يصدق لولا الأمارات التى حكاها. سلمان له فى
ليلة الفراق . ثم حكى له الراعى ما عمله أبوه فى ملابس له
(لسامان) بعد سفره ليعلم للناس مقتلته خشية العار . وأخبره أن
والده قد مات . وبوران تزوجت وأنجبت وماتت .. فكفكف
سلمان دمه .. :

« كنت أحبها .. وأحب لها أن تدرك الإسلام .. » .

أما أمه فقد ماتت أيضا . والدار ملك لإخوته .. ولا يزالون على
الجحوسية . واستطرد الراعى :

— أما أنا فمسلم .. النور يدخل القلوب المخلصة كما تدخل
أشعة الشمس والقمر من النوافذ المفتوحة .. قبلنى يا بنى وستفوح
منى اليوم رائحة غير رائحة الخنازير .
واحتضنه وهو يبكى ..

وسار سلمان معه إلى دارهم القديمة ، ولما لقيه إخوته أنكروه ،
لكنه شفقة عليهم من أن يجحدوا ترك لهم الراعى ليعلمهم ثم يعود
إليهم إن كانوا مسلمين .

وخرج .. توجه إلى التل هناك .. حيث يقع بيت النار القديم ..
ووقف والتف حوله قوم مسلمون .. ووقف أحدهم فأذن ...

— ١٤٣ —

طارت من على حائط معبد النار طيور كانت ساكنة فيه ، اتجهت إلى السماء ولم تعد إليه أبدا .. عششت على قمة شجرة خضراء .. وفي هذه اللحظة عاد الراعى إلى سلمان فأخبره أن دارهم فى القرية أصبحت دار إسلام . فتقدم إليها مطمئن القلب ..

وفى صبيحة اليوم التالى كان سلمان متجها إلى المدائن إلى حيث يجلس من جديد لينسج الخوص .. وليأكل من عمل يده .. وأخبره فى المدينة تجعل ابن الخطاب يهز رأسه عجبا من سلوك هذا الباحث عن الحقيقة ..

القاهرة فى نوفمبر ١٩٦٦

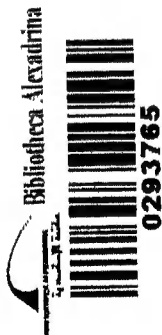
مؤلفات الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

- | | |
|------------------------|----------------------------|
| (١) لقيطة | (١٥) حافة الجريمة |
| (٢) بعد الغروب | (١٦) الباحث عن الحقيقة |
| (٣) شجرة اللبلاب | (١٧) البيت الصامت |
| (٤) شمس الخريف | (١٨) أسطورة من كتاب الحب |
| (٥) غصن الزيتون | (١٩) للزمن بقية |
| (٦) الماضي لا يعود | (٢٠) النافذة الغربية |
| (٧) من أجل ولدي | (٢١) جوليت فوق سطح القمر |
| (٨) ألوان من السعادة | (٢٢) قصة لم تتم |
| (٩) الوشاح الأبيض | (٢٣) الدموع الخرساء |
| (١٠) سكون العاصفة | (٢٤) لقاء بين جيلين |
| (١١) الضفيرة السوداء | (٢٥) الوجه الآخر |
| (١٢) اللجنة العذراء | (٢٦) غرام حائر |
| (١٣) أشياء للذكرى | (٢٧) حلم آخر الليل |
| (١٤) خيوط النور | (٢٨) عودة الغريب |

رقم الإيداع ٣٦٨٦

التقييم الدولي : ١ - ٢٦٢ - ٣١٦ - ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البحالة



التمن ٣٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه